الأنماط المتميزة
في
أدب الطوائف والفرق

بحث

للدكتور/ عبد الجواد محمد المحص

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بالكلية

تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله

وبعد

فهذا بحث لثلاثة أنماط متميزة فى أدب الطوائف والفرق هى على الترتيب:

١ - شعر الحنفاء فى العصر الجاهلى.

٢ - أدب الطوبين فى العصر الأموى.

٣ - أدب المعتزلة فى العصر العباسى.

آمل أن تكون دراستى لها خطوة على طريق العناية الجادة بدراسة أدب الطوائف والفرق الذى لم يعط فى تقديرى حقه الأوفى من البحث والدراسة.

الباحث

شعر الحنفاء فى العصر الجاهلى [١]

يمتد تاريخ الحنيفية والحنفاء امتداداً طويلاً فى العصر الجاهلى، ذلك أن عصرهم يمتد القهقرى من ظهور الإسلام إلى حيث لانعرف، ويشغل فترة غامضة من فترات التاريخ العربى، على أساس أن تاريخ العرب فى صورته الدقيقة الثابتة إنما يبدأ منذ ظهور الرسالة المحمدية التى جعلت من العرب أمة واحدة ذات كيان متميز متماسك، تسلك سبيلها فى التاريخ سبيلاً واضحة المعالم بارزة القسمات.

ولفظة (الحنفاء) جمع (حنيف) ويرادفها «الأحناف» و «المتحنفون»، والحنف أو التحنف ذو شقان من حيث المعنى : شق لغوى، ومعناه الميل أو التحول من حال إلى حال، أو من جهة إلى أخرى. وشق دينى يتصل بالحنيفية وهو الميل لملة ابراهيم عليه السلام، وترك عبادة الأوثان، ومنه جاءت كلمة حنيف بمعنى المتبع لدين ابراهيم.

فالحنفاء إذن هم أولئك الذين نبذوا عبادة الأوثان، ومالوا إلى ملة ابراهيم الذى حنف عما كان يعبد أبوه وقومه من الآلهة إلى عبادة الله. ويسمى هؤلاء الحنفاء أيضاً بالموحدين لأنهم آمنوا بعقيدة التوحيد وأنكروا تعدد الآلهة، وأسلموا وجوههم لرب واحد وإله واحد هو الله عز وجل قبل أن يأتى بذلك سيدنا محمد ﷺ فى شريعته الغراء.

وقد كانت الديانة الحنيفية قد مرت بطورين : قديم يرجع إلى عهد إبراهيم (عليه السلام) ثم يمتد إلى عهد إسماعيل (عليه السلام) وعقبة، وحديث حين

(١) لانقصد بشعر الحنفاء : ذلك الشعر التقليدى اللذى يتناول الموضوعات العامة أو الأغراض المتعارف عليها فى العصر الجاهلى، بل نقصد الشعر الدينى الذى يتصل بحياتهم الروحية وعقيدتهم الحنيفية التى اعتنقوها وآمنوا بصدقها وانعكست بأضوائها على شعرهم.

انتكست الوثنية العربية ووهنت وقد جاء هؤلاء فى الطور الثانى حيث أبدوا سخطهم على ما شاع من فساد، ودعوة إلى الرجوع للحنفية النقية، وكان ذلك إرهاصاً بالرسالة الإسلامية العظيمة.

ولعل ما روى على لسان ابن هشام فى السيرة النبوية يكشف لنا المزيد عن طبيعة هذه الطائفة ومعتقدها وبعض رجالها حيث يقول :

« واجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عليه، ويديرون به، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا : أجل، وهم ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شئ، لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم، ما حجر نطيف به، ولايسمع ولايبصر، ولاينفع ياقوم، التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شئ فتفرقوا فى البلدان يلتمسون دين الحنيفية دين ابراهيم.

ومن هؤلاء الشعراء قس بن ساعدة الإيادى وأمية بن أبى الصلت، وسويد ابن عامر المصطلقى ووكيع بن سلمة بن زهير الإيادى، وعمير بن جندب الجهنى، وأبو قيس بن صرمة بن أبى أنس وورقة بن نوفل وعامر بن الظرب العدوانى وعلاف بن شهاب التميمى، والملتمس الكنانى، وزهير بن أبى سلمى وخالد بن سنان بن غيث العبسى وعبد الله القضاعى وكعب بن لؤى بن غالب وأسعد بن كرب وعلاف بن شهاب التميمى وعبد الطابخة بن ثعلب وزيد الفوارس بن حصن، وآخرون.

والرائع حقاً أن هؤلاء الحنفاء الذين مالوا عن وثنية آبائهم بفطرتهم السليمة، وبتأثير ما قرأوه فى كتب النصارى قد أحيوا بصنيعهم هذا ما ضاع من شريعة إبراهيم عليه السلام أبو الحنيفية البيضاء.

وقد كانت هذه النزعة الإصلاحية التى سيطرت على عقول بعض الحكماء والمفكرين العرب تنبيهاً للأذهان، وإرهاصاً لظهور النبى الجديد، وتهيئة للعقول لتستعد لقبول التعاليم الجديدة التى سيتقدم بها النبى الكريم. بل كانت هذه النزعة المتحنفة دليلاً على أن العرب فى نهاية العصر الجاهلى قد سئموا وحللوا الديانات الخرافية التى توارثوها عن آبائهم حتى لنجد من الشعراء من يسخر من هذه الآلهة أو يثور عليها.

ووفى ذلك يقول شاعر من بنى ملكان من كنانة وكان لهم صنم يقال له سعد:

أتيـــنا إلى سـعد ليجـــمع شـملنا
فشتتنا سعـــدٌ فلا نحـــنُ مِنْ سَعدِ
وهل سعـدٌ إلا صخـرةٌ بتنوُفَـــةٍ[1]
من الأرض لا يدعُو لِغى ولا رُشْد

ويقول آخر فى صنم كان اسمه ذا الخُلْصَةِ وكان صنم بجيلة وباهلة وأزد وغيرها:

لو كنتَ يا ذا الخُلْصَـةَ المَوْتُورا
مِثلى وكان شَـيْخُكَ المَقْبُـورا
لم تَنْهَ عـن قَتْل العداة زورا

ويقولون إن سبب قوله هذه الأبيات أنه قتل أبوه فأراد الطلب بأثره، فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده الأزلام، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فقال تلك الأبيات التى ينحلها بعض الرواة امرأ القيس.

(١) التنوفة : الأرض الواسعة والفلاة لا ماء فيها ولا أنيس.

كذلك من قبيل السخرية بهذه الآلهة ما رواه ابن قتيبة الدينورى فى كتابه المعارف[1] حيث يقول :

وكان بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية إلهاً من حيس (تمر بالسمن والدقيق) فعبدوه دهراً طويلاً، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه، فقال رجل من بنى تميم ساخراً:

أكَلَتْ رَبَّها حنفيةُ مِنْ جُوعٍ قديمٍ بها ومن إعوازِ

وقال آخر :

أكَلَتْ حَنِيفَةَ ربَّها زمنَ التقَحُّمِ والمجَاعَةْ
لم يَحْذَرُوا مِنْ رَبِّهِم سُوء العَوَاقِبِ والتَّباعَةْ

وينبغى أن نعلم أن معظم هؤلاء الحنفاء عاشوا قبل الإسلام وأنهم فى جملتهم يشكلون ظاهرة اجتماعية ودينية جديدة من حيث التحرر من سلطان التعدد القبلى والتشتت الدينى المرتبط به. وقد ربط بعض الباحثين بين ظهور هؤلاء الحنفاء وبين حدوث تطورات سياسية جديدة فى الجزيرة العربية منها : تفجر الصراع السياسى الذى اتخذ – بعد حملة أبرهة الحبشية الفاشلة على مكة – مضموناً تاريخية حدد وجهته كصراع بين قوى داخلية من أهل البلاد وقوى خارجية كالحبش والفرس. ومنها حادث ذى قار الشهير سنة ٦٠٩م الذى كان تعبيراً عن الرغبة فى نمط جديد من العلاقات الاجتماعية بين القبائل تسمو على يالتعدد وتتطلع إلى ما يشبه الوحدة القومية.

وفى هذه الظروف السياسية نشأت ظاهرة الحنيفية تدعو إلى اقتلاع جذور الوثنية بوصفها مرتبطة بقبلية تعددية تقسم جماعة العرب إلى وحدات

(١) المعارف لابن قتيبة : ص ٦٦٢ دار إحياء التراث العربى بيروت ١٩٧٠م.

متصارعة، «فليس من معنى لتعددية الآلهة فى الوثنية إلا أنها الصورة القائمة فى وعى الإنسان القديم عن تعددية الأطر البدوية» (١).

هؤلاء الموحدون كانوا قلة من حيث العدد، ولكنهم ثاروا على ما انصرف إليه قومهم من عبادة الأوثان والخمر والميسر والأزلام وما إلى ذلك. وقد وصفتهم المصادر الإسلامية بأنهم عقلاء العرب. وهذه المصادر تنسبهم إلى دين ابراهيم، وقد يستشهد الإخباريون على ذلك بنصوص تنقل عنهم مثل قول زيد بن عمرو بن نفيل – وهو من الحنفاء الذين ماتوا قبل بعثة النبى – برواية أسماء بنت أبى بكر : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : «يامعشر قريش، والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيرى» (٢).

على أن هؤلاء الحنفاء قد شكلوا بأشعارهم الناطقة بعقيدتهم مدرسة جديدة فى العصر الجاهلى قامت إلى جوار المدارس الأخرى المتمثلة فى شعراء المعلقات، والصعاليك، والفرسان، وشعراء المناذرة والغساسنة ومدرسة عبيد الشعر، لكن البون شاسع من حيث المضمون الفكرى بين هذه المدارس الفنية المحضة ومدرسة الحنفاء الدينية.

ويمكن تقسيم الموضوعات التى تناولها فى أشعارهم إلى قسمين:

فى القسم الأول .. كانوا يتحدثون عن عقيدتهم وما يرتبط بها من توحيد الخالق وعدم الشرك به، ونبذ الأوثان ثم التأمل فى مخلوقات الله، التى ملأت الكون، كما كانوا يتذاكرون أنبياء الله السابقين، ويذكرون قصصهم، وما أيدهم الله به من خوارق لتكون لهم ولغيرهم عبرة وعظة.

---

(١) انظر : النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية للكدتور حسين مروة : ص ٣١٥ بيروت ١٩٧٨م.

(٢) بلوغ الأرب لمحمود شكرى الألوسى : ٢٤٧/٢ ط. دار الكتاب العربى بمصر القاهرة ١٣٤٢هـ.

وفى القسم الثانى .. كانوا يتذكرون ويلات الحروب ويذكرون بها ويدعون أقوامهم إلى نبذ الحروب فهم رسل سلام ويدعون إلى السلام ويعددون مزاياه، التى ستعود على مجتمعهم من جراء اتباعه. ويدخل فى هذا المجال الاجتماعى – تقديم النصائح والتوجيهات إلى أقوامهم، لتجنب العادات الذميمة، كوأد البنات وشرب الخمر والقتل والسرقة والزنا والفجور، وغير ذلك ودعوة الناس من حولهم للتسامح والكرم والأخاءو حماية الجار، وما إلى ذلك من أمور تندرج تحت هذا المجال مما كان له أكبر الأثر فى حياتهم وحياة معاصريهم.

وواضح أن القسم الأول من موضوعات شعرهم : قسم دينى محض يتناول عقيدة التوحيد، والتأمل فى مخلوقات الله، وموضوع القضاء والقدر، والقصص الدينى، ثم الحكمة.

أما القسم الثانى فهو اجتماعى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقسم الأول، ويتناول الدعوة إلى السلام، والدعوة إلى التمسك بمكارم الأخلاق، والدعوة إلى الرحمة وصلة الرحم، والنهى عن أكل الميتة، والنهى عن شرب الخمر وإتيان الفواحش.

وفيما يلى نماذج مما قالوه فى كل موضوع من الموضوعات السالفة:

أولاً : فى عقيدة التوحيد التى آمنوا بها، وقرروا أن لهذا الكون إلهاً واحداً لايعبدون غيره، ولا يشركون معه سواه، وأنه وحده علام الغيوب وخالق الكون بكل ما فيه .. فى هذا الغرض نقرأ أكثر من قصيدة وأكثر من نموذج نذكر منها قوول زيد بن عمرو معلناً إيمانه بالله وإسلام وجهه وإذعانه له معترفاً بربوبيته وبقدرته كما سلم له كل شئ من خلقه :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت

له الأرض تحمل صخراً ثقالا

دحاها فلما رآها استوت

على الماء أرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت

له المزن تحمل عذبا زلالا

إذا هي سيقت إلى بلدة

أطاعت فصبت عليها سجالا [1]

ويقول زيد بن عمرو منكراً لعبادة الأوثان ومتهكماً بتعدد الآلهة [2]:

أربا واحداً أم ألف رب؟

أدين إذا تقسمت الأمور؟

عزلت اللات والعزى جميعا

كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها

ولا صنمي بني عمرو أزور

ولا هبلا أدين وكان ربا

لنا في الدهر إذ حلمي يسير

(١) السيرة النبوية ص ٢٣١ ومعنى دحاها : بسطها. سجالاً : جمع سجل، وهي الدلو المملوءة ماء، وهو يقصد ماء كثيراً كالدلاء.

(٢) السيرة النبوية : ٢٢٦/١ ، والأغاني : ١٢٤/٣ ، ١٢٥ والأبيات تختلف فيه من حيث الترتيب ومن حيث الألفاظ.

ولكن أعبـــد الرحمـــن ربـى

ليغفـر ذنبى الـرب الغفـور

فتقوى الله ربكـــم احفظوهـا

متى ما تحفظوهـا لا تبـوروا

ترى الأبـرار دارهـم جنـان

وللكفـــار حاميـــة سعـير

والقصيدة كما ترى فيها ما يرجع إلى المنطق والعقل الرشيد؛ وذلك حينما يناقش تعدد الآلهة وينكر أنه لن يكون هناك دين إذا تقسمت الأمور، وبناء على ذلك عزل اللات والعزى وجميع الأصنام عن حياته؛ لأنها ليست من الدين الحق منطقياً وعقلياً؛ ولذلك أرجـ ـخاذه هبلا رباً مدة من الدهر إلى ضعف العقل؛ فقد كان هبل رباً له حينما كان عقله يسيراً، ليس فيه قوة تدبر ولا تفكير. وبجانب التفكير المنطقى فى القصيدة نجد فيها بعض المعلومات التى استمدها ممن اتصلوا بالديانات السابقة، مثل ورقة بن نوفل، حيث كان صديقاً له؛ وذلك مثل قوله : بأن الأبرار لهم الجنان، وأن الكفار لهم السعير الحامية.

ويقول زيد بن عمرو أيضاً [1]:

ألا أيها الإنسان إيـاك والـردى فإنك لا تخفى من الله خافيـا

وإياك لا تجعل مع الله غـيره فإن سبيل الرشـد أصبح باديـا

رضيت بك اللـهم رباً فلـن أرى أديـن إلهـا غيرك الله ثانيـا

فتراه هنا يحذر بنى الإنسان أن تسيطر عليهم الهواجس فيتردون فى

(١) بلوغ الأرب ٢/٢٤٩.

مهابط الشرك ويقول : إن الله لاتخفى عليه خافية، ويعظهم أن الرشد والهداية قد ظهرت واضحة جلية، ثم يؤكد خضوعه لله، واعترافه بوحدانيته...

ويقول قس بن ساعدة، مقرا بالتوحيد الخالص [١]:

كلا بل هو الله إلـه واحـد ليس بمولـود ولا والـد

* أعاد وأبدى وإليه المآب غدا *

والتوحيد فى مفهوم الحنفاء يهدم كل شرك، إنهم يقرون بأنه الواحد الحى الدائم الباقى، الوارث لكل المخلوقين المحيط بكل شئ القادر على كل شئ لذلك فهم يركزون على هذا الجانب فى شعرهم .. يقول أمية[٢]:

ألا كل شئ هالك غير ربنا وللـه ميراث الذى كان فانيا

ولى لـه من دون كل ولاية إذا شاء لم يمسوا جميعا مواليا

وإن يك شئ خالدا أو معمرا تأمل تجد مر فوقه الله باقيا

وعقيدة التوحيد - عند الحنفاء - ترتبط ارتباطاً وثيقاً «بدين الحنيفية» الذى يدينون به، لذلك نراهم دائماً يقرنون حديثهم عن التوحيد، بالحديث عن دين الحنيفية. وفى رأيهم أن كل دين غير دينهم باطل. وفى ذك يقول أمية [٣]:

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور

فالحنيفية فى اعتقادهم ومفهومهم هى الدين الحق. وأن ما عداها من الأديان باطل، لايجدى يوم الدين. ويصف أمية « ربه » فى موضع آخر من شعره بأنه « رب الحنيفة » فيقول [٤]:

---

(١) الملل والنحل ١/٩٦.

(٢) خزانة الأرب ١/١١٩.

(٣) الأغانى ٤/١٢١ وانظر أبيات أبى قيس بن الأسلت - عن الدين الحنيف - فى السيرة النبوية ١/٢٨٤.

(٤) خزانة الأدب ١/١٢٠

الحمد لله ممسانـــا ومصبحنا بالخير صبحنـــا ربى ومـسانـــا
رب الحنيفة لم تنفـــذ خزائنـه مملـــوءة طبق الآفـــاق سلطانا

ويقول مذكر العرب بدين ابراهيم عليه السلام :

أن آيـات ربنـــــا ثاقبـــــات
لا يمـــارى فيهـــن إلا الكفـــــور
خلـــق الليـــل والنهـــــار فكـــــل
مـــــستبـــين حـــسابه مقـــــدور
ثـم يجـلـو النـــــهار رب رحـــيم
بمهـــاة شـعاعـــهـــــا مبشـــور
حبس الفيـــل بالمغـمـــس حـــتى
ظل يحبـــو كأنـــه معـــقـــور
لازمـا حلقـــة الجـــران كمـــا قط
ـــــر من صخـــر كبكـب محـــــدور
كل دين يوم القـــيامـــــة عنـد اللـ
ـــــه إلا ديـــن الحنـــيفـــة بـــور

ويقول أمية .. داعياً ربه أن يثبت الإيمان فى قلبه، وفى كل جارحة من جوارحه مادام على قيد الحياة :

يارب لاتجعلنى كافـــراً أبـــداً واجعل سريرة قلبى الدهـر إيمانا
واخلط به بنيتى وأخلط به بشرى واللحم والدم ما عمرت إنسانـــا

ولعلنا قد لاحظنا أن فكرة التوحيد عند الحنفاء، تخالف التوحيد فى اليهودية والنصرانية معاً، إذ يقول اليهود «عزير ابن الله» ويقول النصارى «المسيح ابن الله» .

وقد نصت على ذلك سورة التوبة : فى قول الله تبارك وتعالى «وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ؟ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم «أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون»[١] .

وبذلك يكون الحنفاء قد خرجوا على الأساس فى هذه العقائد وانطلقوا إلى التوحيد الخالص إلى العقيدة النقية ملة إبراهيم.

إن إيمانهم بالله، كان يدفعهم إلى مناجاته، ومخاطبته فى كل حال، وكل وقت يسألونه الخير، ويعترفون بفضله، ويطلبون عفوه ومغفرته، «إنهم يدعونه فى مناجاة تسيل رقة وعذوبة من مثل قول عبد الطابخة ابن ثعلب» [٢] .

أدعوك يارب بمـــا أنت أهلـــه دعـــاء فريق قد تشبث بالعصم
لأنك أهل الحمـــد والخير كلـــه وذو الطول لم تعجل يسخط ولم تلم
وأنت الذى لم يحيه الدهـــر ثانيا ولم ير عبد منك فى صالح وجم
وأنت القديم الأول الماجـــد الذى تبدأت خلـق الناس فى أكتم العدم
وأنت الذى أحللتنى غِيب ظلمـة إلى ظلمة فى صلب «آدم» فى ظلم

فهو فى مناجاته الصادقة لربه، يعترف بأنه ملجأ كل داع، وملاذ كل محتاج، يستجيب لكل دعاء لأنه أهل الحمد والخير، يتحمل أخطاء عباده ولا يعجل بالانتقام منهم، ويخاطب ربه بصفات القدرة .. بأنه الباقى الدائم، الذى لايفنى ولايزول، ويصفه بأنه القديم الأول الماجد، الذى بدأ الخلق منذ القدم، بدأ من صلب آدم.

ولورقة بن نوفل قصيدة يرثى فيها زيد بن عمرو بن نفيل، فيصفه بالرشد لأنه آمن بالرب الذى ليس رب كمثله، وترك الأوثان، فتجنب بذلك

(١) الآيتان ٣١ ، ٣٢.
(٢) بلوغ الأرب ٢/٢٧٦.

النار الحامية، وأصبح فى دار المقام فيها كريم، ويلاقى فيها خليل الله .. يقول :

رشدت وأنعمت ابن عمرو، وإنما
تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله
وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وإدراكك الدين الذى قد طلبته
ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها
تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكن
من الناس جبارا إلى النار هاويا
وقد تدرك الإنسان رحمة ربه
ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

وفى موضوع التأمل فى مخلوقات الله عز وجل يقول أمية بن أبى الصلت[1]:

إن آيات ربنا ثاقبات ما يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم بمهاة شعاعها منشور

فترى الشاعر هنا يقرر أن آيات الله واضحة ناصعة لاتحتاج إلى دليل، ولا يستطيع أن يماريها أو ينكرها إلا الكفور، وتتضح أول ما تتضح فى خلق

(١) ديوان أمية : ص ٣٩١ تحقيق الدكتور عبد الحفيظ السطلى ط. دمشق ١٩٧٧م.

الليل والنهار وتعاقبهما، والشمس والقمر ، فكل يدور فى فلكه وفقاً لمشيئته ولتقديره عز وجل.

ويقول فى قصيدة أخرى [٢]:

إلـــه العالميـــن وكـــل أرض ورب الراسيـــات من الجبال
بناهـــا وابتنى سبعـــا شـــداداً بلا عمـــد يريـن ولا رجـــال
وسواهـــا وزينهـــا بنـــور من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهـــب تلألأ فـــى دجاها مراميهـــا أشد مـــن النصال
وشق الأرض فانبجست عيونا وأنهـــاراً من العـــذب الزلال

فتراه هنا متأملاً فى خلق السماوات والأرض، مستدلاً من عظمتهما على عظمة خالقهما فهو إله العالمين ورب الجبال ورب السموات السبع الشداد، بناها بغير عمد. وسواها وزينها بنور الشمس والقمر، وجعل فيها الشهب والنجوم المتلألئة التى تبهر الأبصار، وشق الأرض فتفجرت منها العيون والأنهار بالعذب الزلال.

ويقول قس بن ساعدة متأملاً حركة الكون : الليل والنهار، والشمس والقمر وناظراً إلى الجبال الشوامخ الراسيات، والبحار الواسعة الغزيرة المياه، ومتابعاً حركة النجوم والكواكب فى السماء، مستدلاً من ذلك كله على وجود الله، وعظمته فى صنعه [٢]:

ذكـــر القلب من جـــواه ادكار وليـــال خـــلا لهـــن نهـــار
وسجـــال هواطـــل مـــن غمام ثـــرن ماء وفى جواهن نـــار
ضوءهـــا يطمس العيـــون وأرعا د شداد فى الخافقين تطـــار

(١) ديوان أمية : ص ٤٤٧.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير : ١٤٧/١ ط. عيسى الحلبى ١٩٦٤م بتحقيق مصطفى عبد الواحد.

وقصـــور مشيدة حوت الخيـــ ـر وأخـرى خلت فهن قفـار
وجبـــال شوامـــخ راسيـــات وبحـــار مياههـن غـزار
ونجـــوم تلوح فى ظلم الليـــ ـل نراهـــا فـى كل يـوم تدار
ثم شمس يحثهـــا قمـــر الليـــ ـل وكـل متابـــع مـــوار
وصغير وأشمـــط وكبيـــــر وكلهم فى الصعيـد يوما مزار
وكثير ممـــا يقصـر عنـــــه حدسـه الخاطـر الذى لايحار
فالذى قد ذكـــرت دل على اللـ ـــه نفوساً لها هدى واعتبار

ويتأمل زهير فى مخلوقات الله، ويتساءل : هل يرى الناس من الرشد ما أرى من الأمر الجليل الواضح الذى يثبت قدرة الله فى الكون فبإرادته يسير كل شئ ويتحرك كل مخلوق وبمشيئته يحيا من يكتب له الحياة، وبمشيئته يفنى من يكتب عليه الفناء.

تشهد على ذلك أطلال وآثار السالفين الغابرين، الذين طوتهم قدرة الله فأقبرتهم ويصل زهير فى نهاية تأمله – إلى أن الإنسان مهما تأمل وتفكر، فهو عاجز عن إدراك كنه وحقيقة ما يحدث حوله لكنه يدرى حقيقة واحدة، هى عظمة الخالق فى آيات صنعه التى تذكر به وتدل عليه يقول [1]:

ألا ليت شعرى هل يرى الناس ما أرى
من الأمر أو يبـدو لـــهم ما بـدا ليـا؟
بـــدا لى أنّ الـــله حـق فزادنـــى
إلى الحـق تقوى اللـــه ما كان باديـا
وانى مـتى أهبـط من الأرض تلعـة
أجـــد أثراً قبلـــى جديـــداً وباليـــاً

(١) شرح ديوان زهير لثعلب : ص ٢٨٤ ط. الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤م.

أرانـــى إذا ما بـــت بـت على هـوى
وأنى إذا أصبحـــت أصبحـــت غاديا
إلى حفـــرة أهـــدى إليهـــا مقيمـــة
يحـــث إليهـــا سائق مـــن ورائيـــا
كأنـــى وقـــد خلفـت تسعيـن حجـة
خلعـــت بهـــا عن منكبـــى ردائيـــا
بدا لـــى أنى لسـت مدرك ما مضـى
ولا سابقـــى شئ إذا كـــان جائيـــا
ألا لا أرى علـــى الحـــوادث باقيـــا
ولا خالـــدا إلا الجبـــال الرواسيـــا
وإلا السمـــــاء والبـــلاد ورينـــا
وأيامنـــا معـــدودة والليالـيـــا
أرانى إذا مـــا شئـت لاقيـت آيـة
تذكرنـــى بعـــد الذى كنـــت ناسيـــا

ومن شواهد ما قاله الشعراء الحنفاء فى موضوع القضاء والقدر خيره وشره قول زهير بن أبى سلمى [1]:

يامن لأقـــوام فجعـت بهـم ... كانـوا ملوك العـرب والعجم
فاستأثـــر الدهـــر الغداة بهـــم ... والدهـــر يرمينـــى ولا أرمى
لو كـان لـــى قرنـــا أناضلـــه ... ما طاش عند حفيظة سهمـــى
أو كـــان يعطـــى النصف قلت لـه ... أحرزت قسمك فاله عن قسمى

(١) شرح ديوان زهير لثعلب : ص ٢٨٥ .

يا دهـــر قـــد أكثـــرت فجعتنـا بسراتنـــا ووقـــرت فى العظم
وسلبتنـــــا مـــا لســـت معقبـــه يا دهـر مـــا أنصفت فى الحكم

ويقول قيس بن صرمة:

يـا بنـــى الأيـــام لا تأمنوهـــا واحذروا مكرهـــا ومـــر الليالى
واعلمـــوا أن مرهـــا لنفـاذ الـ ـخلق ما كـــان من جديد وبالى

فتراه يقرر أن الأيام لايؤمن من جانبها، وأن الناس لابد أن يكونوا فى حذر منها ومن الليالى، وهو يرجع عوادى الأيام إلى أفعال الناس بسبب ما يقترفونه من آثام.

ويقول سويد بن عامر المصطلقى محذراً من الركون إلى الدنيا لأنها فانية وكل ما فيها فان، وداعياً إلى تذكر الموت والآخرة، ومقرراً أن المنايا مقدرة على الإنسان، وأنها محتومة لا مفر منها، وأن الخير والشر مكتوبان على النواصى، وليس لامرئ يد فيما يصيبه القدر [١]:

لا تأمنـــن وإن أمسيـــت فـى حـــرم
إن المـنايـــا بجنبـــى كـل إنســـان
واسلك طريقك تمشـى غير مختشع
حتى تلاقـــى ما يمنـــى لك المـانى
فكل ذى صاحـــب يومـــا مـفارقه
وكـــل زاد وان بـقيتـــــه فانـــى
والخير والـــشـــر مقرونـــان فى قرن
بكـــل ذلـــك يأتيـــك الجديـــدان

ولقس بن ساعدة الإيادى أبيات مشهورة فى نهاية البشر يقول فيها [٢]:

(١) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للألوسى: ٢/٢٥٩ ط. القاهرة ١٩٢٤م.
(٢) البيان والتبيين للجاحظ: ١/٣٠٩ ط. القاهرة ١٩٤٨م بتحقيق عبد السلام هارون.

فـــى الذاهبيـــــن الأوليـــــــ

ـــن من القـــرون لنـــا بصائر

لمـــــــا رأيـــت مـــــواردا

للمـــوت ليـــس لهـــا مـصادر

ورأيـــت قومـــــى نحـــوهـــــا

يمضـــى الأصـــاغـــر والأكـابـر

أيقنـــت أنـــــى لا محـــــا

لـــة حـــيث صـــار القوم صائـر

ويقول أمية بن أبى الصلت مخاطباً قلبه المشغول بالدنيا وحبها :

فـأىَّ فَـتى قَبْـلى رأَيْـتَ مُخـلداً

لَـــه فى قـــديم الدَهْـرِ ما يتَـودَدُ ؟

ومـــنْ يبْتَليـــه الدَهْـــرُ منْهُ بعـثرةٍ

سيَكْبُـــو لهَـــا ، والنائبَـــاتُ تَـردُدُ

فلَـــمْ تَسْلَـــم الدُنْيَـــاَ وإنْ ظَـــن أهْلُها

بصحتهَـــــا . والدهْـــرُ قَـدْ يتَجـدَدُ

ألسْتَ تَـــرى فيمَـــا مضَى لك عبْـرةً

فمَـــه ، لا تكن يا قَـلبُ أعمـــى يلَـدَدُ

فكُـــنْ خَائفـــاً للْمَـوْتِ والبَعْـثِ بَعْـدَهُ

ولا تَكُ ممـــن غَـرَّهُ اليـــومُ أو غَـــدُ

فإنـــك فـــى دنيـــا غـرورٍ لأهْلهـــا

وفيـــهـــا عـــدُوٌ كاشـــحُ الصَدْرِ موقِـدُ

«وفى هذه الأبيات كما ترى يخاطب الشاعر قلبه قائلاً له : هل رأيت أيها القلب فتى مخلداً كان له فى حياته ما يوده ويرغب فيه، ذلك أن الإنسان يسقط ويكبو تحت وطأة المصائب حين يبتليه الدهر بها، وما أكثر النكبات التى تتردد على الأحياء. على أن الدنيا لم تسلم لأهلها – رغم آمال بعض الناس فيها، وتوهمهم بدوامها – فالدهر وحده هو الذى يتجدد دائماً.

ثم يخاطب الشاعر قلبه بعد ذلك متسائلاً : ألم يأن لك أن تبتعد عن غيك وضلالك، فلا تكون مثل الأعمى الذى يسير على غير هدى (ومه اسم فعل أمر بمعنى كف، ويلدد : يتحير) . ويختم الشاعر الأبيات بأن يطلب إلى قلبه أن يخاف الموت والبعث من بعده، وألا يتابع هؤلاء الذين تغرهم اللحظة الحاضرة عن يوم الحساب، ثم هو يحذر قلبه فى البيت الأخير مرة أخرى بأن يتنبه إلى غرور الدنيا فإن فيها شيطاناً حاقداً يشتعل صدره بنار الضغينة عليه، وهو دائم الإغراء لهذا القلب ببهرج الحياة الزائل».

وقال أيضاً :

وقَدْ علَمنْـــا لَو انّ العلْـمَ ينْفَعُنَـــا
أنْ ســوْفَ تلْحـقُ أولانـــا بأخْرَانـا

وقد عجبت وما المـوت من عـجـب
ما بال أحـــــيائنا يبكون موتانـــا

وقد وصف النبى ﷺ هذا الشاعر بقوله : « كاد أمية يسلم »؛ فهو يمثل طابعاً دينياً خاصاً استمده من مطالعاته فى الكتب القديمة من يهودية ومسيحية واختلاطه بأصحاب الكتاب ومعرفته بالقصص والأساطير. وتشبه أشعاره المواعظ الدينية ولكنها ضعيفة من وجهة النظر الفنية.

ومن شعر الحنفاء المتحدث عن أنبياء الله ورسله قول أمية بن أبى الصلت:

جـزى اللـه الأجل المرء نوحا جـزاء البـر ليـس لـه كذاب
بما حملـت سفـينتـه وأنجـت غـــداة أتاهـم الموت القـلاب
وفيهـــا من أرومتـــه عيـــال لديـــه لا الظمـاء ولا السعـاب

ويعد أمية بن أبى الصلت أكثر الشعراء الحنفاء اهتماماً بقصص الأنبياء فقد تحدث فى شعره عن آدم ونوح وقصة الطوفان وقصة ذى القرنين وبلقيس وحكاية الهدهد وقصة ابراهيم وتقديم ابنه للذبح وداود وفرعون وموسى وابن عاد وعيسى وأمه مريم، وكيفية حملها به وذكر حديث مريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها كما ورد فى شعره قصة لوط أخى سدوم وقصص أخرى عديدة.

وتتمثل المصادر التى استقى منها أمية هذه القصص فى الأساطير التى كانت شائعة فى الجاهلية، كما تتمثل فى كتب اليهود والنصارى التى اطلع عليها، ومن هذه القصص قصص حاول فيها صياغة بعض القصص القرآنى شعراً، ويرى البعض أنه قصص موضوع ألفه الوضاعون فى أيام الحجاج عصبية وتقرباً إليه، فكلاهما ثقفى.

وأيا ما كان الأمر فإن الناظر فيما جاء بديوان أمية من قصص دينى يجد أنه ثلاثة أضرب : أولها : قصص يبدو أنه لم يتأثر فيه بالقرآن وإنما نظمه قبل الإسلام، وتظهر فيه قوة الأداء، ومن أمثلته خرافة تطويق الحمامة التى كانت سبباً فى نجاة نوح أو دلت من بالسفينة على اليابسة. والضرب الثانى : قصص يبدو فيه الحشو والتفكك والابتذال وسوء المحاكاة، ومن أمثلته قصته فى الذبيح حين هم ابراهيم بذبح ولدهُ ففداه الله بذبح عظيم، وكذلك تصويره لقصة موسى وهارون مع فرعون، وتصويره لقصة مريم، فمحاكاته فى هذه القصص وأمثالها للقرآن الكريم واضحة بينة وفيها حشو وفضول كثير. والضرب الثالث : لون وسط لاتبدو فيه كلفة المحاكاة للقرآن الكريم ومن أمثلته ما قاله فى خراب سدوم مدينة قوم لوط.

ومن نماذج القصص المسوقة لتقديم العظة والعبرة لمن خدعته الدنيا ونسى ربه قول زهير [1]:

ألـم تـر أن الله أهلـك تبعـا وأهلك لقمـان بن عـاد وعاديا

وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى وفرعـون جباراً طغى والنجاشيا

(١) شرح ديوان زهير : ص ٢٨٨

ألا لا أرى ذا أمـــة أصبـحت به فتتركـه الأيـام وهى كما هيـا
ألم تر للنعمـان كـان بنجـوة من الشـر لو أن أمراً كان ناجيـا
فغير منه ملك عـشريـن حجـة من الدهـر يوم واحد كان غاويا

ومن نماذج شعره الحنفاء الدال على إيمانهم بيوم الحساب، وبالثواب والعقاب وبأن الله يعلم ما يكتم داخل النفوس من خير أو شر قول زهير بن أبى سلمى:

فلا تكتمـن اللـه مـا فـى نـفوسكم
ليخفى ومهمـا يكتـم اللـه يعلـم
يؤخـر فيوضـع فى كتاب فيدخـر
ليوم الحسـاب أو يعجل فينقـم [١]

ومن نماذج شعرهم فى الحكمة التى هى نظرة صائبة فى الحياة ومعرفة بحقائق الأمور على ماهى عليه قول أمية بن أبى الصلت :

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ولا البصير كأعمـى ما له بصر
فاستخبر الناس عما أنت جاهله إذا عميت فقد يجلو العمى الخبر

وقول أمية الذى سبق ذكره مصوراً خبرته مع الأيام ونوازل القدر، مبيناً أن دوام الحال من المحال، وأن الدنيا لاتدوم لأحد، فهى متاع الغرور [٢]:

فأى فتى قبلـى رأيت مخلـداً له فـى قـديم الدهـر ما يتودد
ومن يبتليه الدهر منه بعـثرة سيكبو لهـا والنائـبات تردد
فلم تسلم الدنيا وإن ظن أهلـها بصحتـها والدهـر قد يتـجرد
ألست ترى فيما مضى لك عبرة فمـه لا تكن ياقلب أعمى يلدد

(١) القصائد التسع المشهورات : ١/٣٢٦.
(٢) ديوان أمية : ص ٣٧٣.

فكن خائفاً للموت والبعث بعده ولا تك ممـــن غره اليوم أو غد
فإنك فـــى دنـــيا غرور لأهلها وفيـــها عدو كاشح الصدر يوقد

أراد أن الدنيا لاتسلم من المصائب والهموم، وأن الدهر قد تجرد مما عرف به من غدر ومصائب ولكنه لايلبث أن يعود إلى الغدر بالناس، وإنزال النوائب بهم.

ويتمثل زهير المعانى الإنسانية التى كانت تسود مجتمعه فينظمها حكماً فيقول:

ومن يعص أطراف الزجـــاج فإنه مطيع العوالى ركبت كل لهـذم
ومن يك ذا فضـــل فيبخل بفضله على قومـه يستغن عنـــه ويذمم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحـــه يهدم ومن لايظلم الناس يظـــلم
ومن لايصانع فـــى أمور كثيـــرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسـم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله يفـــره ومن لا يتق الشتم يشتم

فهو يقول : من لايقبل الأمر الصغير اضطر إلى قبول الأمر الكبير، ومن يكن صاحب فضل ومال فيبخل بهما على أهله وقومه، تركوه ونبذوه وذموه ومن لايمنع عن عشيرته يذل ومن لان للناس ظلموه واستضاموه ومن لايجامل الناس ويدارهم فى أكثر الأمور أصيب بما يكره وعض بالقبيح من القول. وهى حكم استمدها زهير من تجاربه فى الحياة وظروف بيئته فيصور العلاقات بين القبائل فى العصر الجاهلى، وهى علاقات عداء فى الغالب، وأن الإنسان يذل ويقهر إذا لم يترفق بالناس ويدارهم فى أمورهم، ثم يوضح زهير قيمة من القيم العليا التى عرفت فى عصره وأخذ بها العرب وهى صيانة العرض وكسب الحمد ببذل المال.

ومن شعر الحنفاء المنفر من الحرب، المذكر بويلاتها قول زهير من معلقته المشهورة [١]:

وما الحـــرب إلا ما علمتـم وذقتم وما هـو عنها بالحديث المرجم

(١) المعلقات العشر : ص ٢٣٥ ومابعدها.

متى تبعثوهـا تبعثوهـا ذميمـــة وتضر إذا أضريتموها فتضـرم
فتعرككم عـــرك الرحـــى بثفالهـا وتلقـح كشافاً ثم تحمل فتتئـم
فتنتـج لكـم غلمـــان أشام كلهـــم كأحمـر عاد ثم ترضع فتفطم

إن هذه الأبيات في شعر زهير، وفي عصره ومجتمعه، تعد شذوذاً على ذوق الجاهليين وأشعارهم التي كانت تدوى بفكرة الأخذ بالثأر، والترامي على الحروب ترامي الفراش على النور وقد مضى يصور الحرب في صور بشعة مخيفة. فهي تارة أسد ضار وتارة ثانية نار مشتعلة وتارة ثالثة رحى تطحن الناس، وتارة رابعة تلد، ولكنها لاتلد إلا ذرارى شؤم.. وهو بذلك يهدف إلى إفشاء السلام وأن يتحول العرب من هذه الحروب والمعارك الطاحنة، إلى حياة السلم الوادعة الآمنة التي تنتشر فيها الأخوة والمحبة والرحمة. وهنا تظهر نزعته القوية إلى البر والخير.

ويقول أبو القيس بن الأسلت [1]:

ألم تعلموا ما كان في حرب داحس فتعتبروا أو كان في حرب حاطب
وكم قد أصابت من شريف مسود طويل العماد ضيفه غير خائب
يخبركم عنـها امـرؤ حـق عالم بأيامها والعـلم علـم التجارب
فبيعوا الحراب ملمحارب واذكروا حسابكم واللـه خـير محاسب
ولي امرئ فاختار دينا فلا يمكن عليكم رقيباً غير رب الثواقب
أقيمـوا لنا ديـنا حنيـفا فأنـتم لنا غاية قد يهـتدى بالذوائب

فترى الشاعر يذكر بالويلات التي عاناها المجتمع من جراء حرب داحس والغبراء وكم أصابت من رجال ويحدث القوم حديث مجرب، خبير بعواقب الأمور، ويقول لهم بيعوا الحراب واتركوا الأمر لله فهو الرقيب وهو المحاسب، وأقيموا الدين الحنيف بتعاليمه السمحة، فهو الغاية.

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٤٨٣/١ ط. مصطفى الحلبي ١٩٥٥م بتحقيق مصطفى السقا وزميليه.

ومن شعر الحنفاء الداعى إلى التمسك بمكارم الأخلاق وتقوى الله فى السر والعلن قول أبى قيس أبى أنس [١]:

يقول أبو قيـــس وأصـبح غاديـا ألا ما استطعتم من وصاتى فافعلوا
فأوصيكم باللـــه والبـــر والتقـى وأعـــراضكـــم والبر باللـه أول
وإن قومكـم سادوا فلا تحسدنهـم وإن كنتم أهـل الرياسة فاعـدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهى بقومكم فانفسكم دون العشيرة فاجعلـوا
وإن أنتـــم أمعرتـــم فتعففـــــوا وان كان فضل الخير فيكم فأفضلوا

ومن شعر الحنفاء فى ذم الخمر قول قيس بن عاصم [٢]:

رأيت الخمـــر مصلحة وفيهـــا خصـال تفسد الرجـل الكريما
فلا واللـه أشربهـــا حياتـــــى ولا أدعـــو لهـــا أبـدا نديمـــا
فـــان الخمـــر تفضـــح شاربيها وتجنيهم بهـــا الأمـــر العظيما
إذا دارت حميـــاهـــا تعـلـبت طوالـــع تسفـــه المـرء الحليما

وبعد : فـهذه نماذج سقناها من شعر الحنفاء فى العصر الجاهلى، وهى نماذج ذات دلالة على أن هؤلاء الحنفاء قد مالوا عن عبادة الأوثان والأخلاق الذميمة إلى الحنيفية الحقة وإلى القيم الروحية السمحة، وظلوا أوفياء للقيم الباقية من شريعة أبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام. وفيما ذكرناه من نماذج دلالة على أن شعرهم كان مرآتهم التى تجلت على صفحتها آراؤهم ومعتقداتهم وما يؤمنون به من فكر صحيح يقوم أول مايقوم على عقيدة التوحيد، وهجر عبادة الأصنام، ومما لاشك فيه أن أشعارهم كانت تعبر عن الإرهاصات الدينية التى كانت تملأ شبه الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية.

(١) السابق : ١/ ٥١٠ وجاء فى أخباره : أنه كان قوالاً بالحق، معظماً لله عز وجل.
(٢) المحبر لمحمد بن حبيب : ص ٢٣٨ ط. الهند ١٩٤٢م.

أدب العلويين

يقصد بأدب العلويين ذلك الأدب الذى أبدعه الأدباء المتشيعون لعلى بن أبى طالب ونسله من بعده، يصورون فيه مذهبهم القائل بحصر الخلافة الإسلامية فى البيت الهاشمى، فعلى بن أبى طالب ابن عم رسول الله وزوج ابنته فاطمة الزهراء ووالد الحسن والحسين ريحانتى رسول الله وسيدى شباب أهل الجنة هو الأحق من معاوية بخلافة رسول الله وحكم المسلمين، ثم بنوه من بعده بطريق التسلسل الوراثى، ولاحق فى ذلك لغير العلويين.

ويعرف العلويون باسم (الشيعة)، وقد نشأت هذه الفرقة منذ دب الصراع والتنافس بين الإمام على ومعاوية بن أبى سفيان على الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه، ودارت معارك بين أنصار هذا وأنصار ذلك كان من أشهرها موقعة الجمل وموقعة صفين.

وزاد المتشيعون للبيت الهاشمى بعد مسألة التحكيم فى صفين، ثم بعد مقتل الإمام على، ثم بعد استشهاد الحسين فى كربلاء، وزاد بالتالى عدد الشعراء الذين باتوا يبدعون أروع القصائد التى تنادى بحبس الخلافة والحكومة الإسلامية فى بيت على من الهاشميين، وتفيض حباً لآل البيت وثورة على بنى أمية تطوى فى داخلها رغبة قوية فى أن يزول ملكهم، وتسفك دماؤهم كفاء ما سفكوا دم الحسين وزيد ومن قبلهما ومن بعدهما من الشهداء الهاشميين.

ومعلوم أن الشيعة والعلويين كانوا فرقاً شتى اختلفت فى التعاليم والآراء من وجه، وفى تعيين الإمام أو الأئمة من وجه آخر.

ولكن أشهر الفرق الشيعية ثلاث: الإمامية، الزيدية، الكيسانية.

والأولون ينسبون إلى الإمام، لأن أكثر تعاليمهم دارت حوله، فالإمام هو على بطريق النص من الرسول ﷺ، ثم بنوه من فاطمة الزهراء واحداً بعد الآخر، وأن أبا بكر وعمر اغتصبا حق على، فكانا ظالمين يجب التبرؤ منهما.

وأما الزيدية فينسبون إلى زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وهؤلاء أقل تشدداً من الأولين فقد حصروا الامامة فى أولاد فاطمة ولم يجيزوها لغيرهم - كمحمد بن الحنفية بن زوجة على من بنى حنيفة - وإن اشاعوها بين الفواطم الأكفاء من أولاد الحسن أو الحسين، وجوزوا امامة المفضول مع وجود الأفضل، وعلى هذا صححوا خلافة أبى بكر وعمر.

وأما الكيسانية فهم أصحاب كيسان مولى على أو تلميذ محمد بن الحنفية ابن على بن أبى طالب يزعمون أن محمدا هذا حى لم يمت وأنه مقيم بجبل «رضوى» قرب المدينة يعيش محروساً مرزوقاً حتى يخرج آخر الزمان ليملأ العالم عدلاً كما ملئ ظلماً، وعلى هذا كان كثير عزة، والسيد الحميرى من الشعراء.

ولقد كان للعلويين - وما يزال - تعاليم ومبادئ تتصل بمسألة الخلافة الإسلامية أو نظام الحكم... ومن هذه التعاليم:

(١) قولهم «بالعصمة» فالأئمة معصومون من الخطأ، وهى فكرة فارسية أدخلها الفرس الذين درجوا على أرستقراطية الملوك وتقديسهم، وقد أنكرها معتدلوا الشيعة وأئمتها الأولون لمخالفتها الطبيعة الإنسانية.

(٢) وقولهم «بالمهدى المنتظر» وهو امام يأتى بعد موته، أو غيبته الطويلة ليملأ الأرض عدلاً ونوراً، أضفاها كيسان على ابن الحنفية، ثم استغلها الشيعة ليبشروا الناس بعودة الخلافة إليهم حتى لا يغمرهم اليأس وينسوا الهاشميين.

(٣) وقولهم «بالرجعة» اتساعاً فى عقيدة المهدى يؤمن بها كثير من

الإمامية ويرون أن الرسول وعليا والحسن والحسين وسائر الأئمة يرجعون إلى الدنيا، وكذلك خصومهم كأبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد، ويندب هؤلاء الخصوم الذين اعتدوا على الأئمة ثم يموتون جميعاً.

(٤) وقولهم «بالتقية» وهى وسيلة يسترون بها ضعفهم، أو أساليبهم فى الدعوة السياسية مخافة التنكيل بهم وانقطاع آمالهم وآمال الناس فيهم، فاعتمدوا عليها انتهازاً للفرص وفسروا بها كثيراً من سلوك أئمتهم وبعض آيات القرآن.

ولم يكن العلويون أو الهاشميون أصحاب نشاط أدبى يدور حول أحقية البيت العلوى بالخلافة الإسلامية فحسب، وإنما كان لهم نشاط سياسى أيضاً.

فقد استقر الشيعة فى العراق منذ اختلف على ومعاوية، ولما قتل على وتم الأمر لمعاوية سكت الشيعة على مضض، ثم أثارهم ما دأب عليه ولاة العراق من سب على وآله على المنابر، فثار حجر بن عدى بالكوفة، فأخذه زياد بن أبيه وأرسله إلى معاوية فقتله، وفى عهد يزيد كان خروج الحسين بن على فقتله يزيد فى كربلاء، وقد بعثت نكبة كربلاء كثيراً من الأسى للعلويين، وأثارت شعوراً حزيناً وقصصاً طويلا.

وفى أيام عبد الملك بن مروان كانت حركة التوابين للأخذ بثأر الحسين يتزعمها سليمان بن صرد ولكنه هزم، فاستغل ذلك المختار الثقفى وقام على فلول التوابين وجماعة من الموالى المتشيعين، واستطاع أن يهزم عامل ابن الزبير على الكوفة، ويقتل ابن زياد، ولكن مصعب بن الزبير قتله سنة ست وستين هجرية.

وفى زمن هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) خرج زيد بن على بن زين العابدين بن الحسين بن على يريد الخلافة، فقتل وصلب وأحرقت جثته، وقد لقى ابنه يحيى ما لقيه أبوه وقتل سنة ١٢٥هـ ثم خرج من بعده عبد الله

ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ هـ، وانضم إليه كثيرون من أهل الكوفة وانتهى أمره، غير أن رايات الشيعة لا تلبث أن تقدم من خراسان وتكون نهاية بنى أمية.

والقارئ لأدب العلويين يجده – كما ذكرت – دفاعاً مستميتاً عن أحقية آل بيت النبى من العلويين بالخلافة، وتقريراً لضرورة حبس الخلافة الإسلامية فى هذا البيت الطاهر، على شاكلة قول كثير عزة فى محمد بن الحنفية على مذهبه الكيسانى:

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لايرى عنهم زماناً برضوى عنده عسل وماء

وهو أدب يشيع فيه البكاء على حق العلويين المسلوب، والحزن على أهل بيت الرسول المشتت المهيَن، ويمتزج البكاء والندب فى هذا الأدب بالثناء على الهاشميين والحب العميق لهم، على شاكلة قول أيمن بن خريم الأسدى فيهم:

نهاركمُ مكابدة وصوم وليلكمُ صلاة واقتراء
وليتم بالقرآن وبالتزكى فأسرع فيكمُ ذاك البلاء
بكى نجدغداة غد عليكم ومكة والمدينة والجواء
وحق لكل أرض فارقوها عليكم – لا أبالكم – البكاء
أأ جعلكم واقواما سواء وبينكمُ وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم لأرؤسهم وأعينهم سماء

وهو أدب ترى فيه الثورة على بنى أمية الذين اغتصبوا الخلافة الإسلامية من على ومن بنيه وأحفاده من بعده، على شاكلة ما نلمسه فى قول الكميت بن زيد الأسدى هاجياً الأمويين وداعياً عليهم:

فقل لبنـى أميـة حيـث حلـوا وان خفـت المهنـد والقطيعا
أجاع اللـه مـن أشبعتمـوه وأشبع من بجوركـم أجيـعا
بمرضـى السـياسة هاشمـى يكون حـيـا لأمتـه ربيعـا

وهو أدب ترى فيه الاحتجاج بالأدلة والبراهين على أحقية هذا البيت الطاهر بالخلافة الإسلامية، كما ترى فيه المراثى الحارة النادبة لمن سقط منهم شهيداً فى الحرب، أو ضحية التآمر عليه، أو مات ميتة طبيعية.

وشعر الشيعة بصفة عامة شعر متنوع يظهر فى فنون شتى، فهو احتجاج وتصوير، ومدح ورثاء، ودعاء وابتهال إلى الله عز وجل، وهجاء لأعدائهم من الأمويين والزبيريين والخوارج ... ولكن هذه الفنون وما ماثلها تدور جميعاً حول أصل واحد هو «الجهاد الأدبى فى سبيل الخلافة العلوية ... ولا غرو فأولاد الرسول وأوصياؤه ذوو الحق المقدس عندهم.

والأسلوب فى شعر العلويين متنوع كذلك، إذ تراه هادئاً ورزيناً حين يسلك طريق التقرير والاحتجاج العقلى أو الدينى. وتراه قوياً عنيفاً ثائراً حين تثيره عاطفة الغضب على الخصوم والنقمة منهم. وتراه قوياً جزلاً فى مقام المدح والاحتجاج والهجاء بينما تراه رقيقاً حين يبكى آلام العلويين ويصف هوانهم الشديد .. وهو فى كل هذه الحالات أدب تشيع فيه نبرة الحزن وأنات الحسرة والأسى.

ومعانى هذا الشعر مشتقة – بطبيعة الحال – من تلك الحقوق المدعاة فى الخلافة الإسلامية ونظام الحكم.

وشعر العلويين فى كثير من معانيه يعتمد على القرآن الكريم، وقد لحظ ذلك الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان حين قال: يامعشر الشعراء تشبهوننا

مرة بالأسد، ومرة بالجبل الأوعر ومرة بالحر الأجاج، ألا قلتم كما قال أيمن ابن خريم فى بنى هاشم :

نهاركـــم مكابـــدة وصـــوم وليلكـــم صـــلاة واقتـــراء

هذا ويعد الكميت بن زيد الأسدى، وكثير عزة من أكبر الشعراءالعلويين وأشهرهم، فكلاهما تعصب لبنى هاشم، ووقف عليهم قلبه ولسانه، غير مبال بما يلحقه من أذى وما يناله من ضرر.

وللكميت فى تشيعه لآل البيت قصائد جياد تلقب بالهاشميات، وتعد بحق من غرر الشعر العلوى، ولذلك عنى الشيعة بها فلهجت ألسنتهم بها وتناشدوها حتى إنهم قالوا : « إن من لم يرو قول الكميت : « طربت وما شوقا إلى البيض أطرب » فليس بشيعى»، وهى من خير ما قاله الكميت، وقد ترجمها المستشرقون إلى اللغة الألمانية.

ولقد أجاد فيها مدح بنى هاشم وأحسن الدعاية لهم، وصور حكم بنى مروان أشنع تصوير ووازن بين عدل أئمة الهاشميين، وجور الخلفاء الأمويين. فألهب بها النفوس إلهاباً، ولهج بها العامة والخاصة حتى صاروا يعدون حفظها وإنشادها قربة من قرب الإسلام، وتناقلوا فى ذلك أحاديث ورؤى عن النبى ﷺ، فارتفعت بذلك منزلة الكميت، وصار قومه بنو أسد يعدونه من مفاخرهم، ويقولون فينا فضيلة ليست فى العالم. ليس منا أحد إلا وفيه بركة وراثة الكميت، لأنه رأى النبى ﷺ فقال له أنشدنى :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب

فأنشده فقال له. بوركت وبورك قومك.

ويروى من طريق آخر أن الكميت رأى النبى ﷺ فى نومه، وهو مختف من بنى مروان فقال له النبى ﷺ : مم خوفك؟ فقال : يارسول الله، من بنى أمية، وأنشده :

ألم ترنى من حب آل محمـــد أروح وأغدو خائفاً أترقـــب

فقال له النبى ﷺ : اظهر، فإن الله قد أمنك فى الدنيا والآخرة.

وحدث ابراهيم بن سعد الأسدى قال : سمعت أبى يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال : من أى الناس أنت ؟ قلت من بنى أسد. قال : من أسد بن خزيمة ؟ قلت نعم. قال : أهلا بى أنت ؟ قلت نعم. قال : أتعرف الكميت بن يزيد ؟ قلت : يارسول الله عمى ومن قبيلتى . قال : أتحفظ من شعره شيئاً ؟ قلت نعم. قال أنشدنى:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب

قال : فأنشدته حتى وصلت إلى قوله :

فما لى إلا آل أحمد شيعة ومالى إلا مشعب الحق مشعبُ

فقال لى : إذا أصبحت فاقرأ عليه السلام، وقل له : قد غفر الله لك بهذه القصيدة.

وقد هزت الهاشميات فى عصرها العالم الإسلامى هزاً لروعتها وما اشتملت عليه من تصوير ووصف لما أصاب الهاشميين وقد كان للكميت شعر كثير بلغ إلى موته خمسة آلاف ومائتين وتسعة وثمانين بيتاً والهاشميات هى الباقية منه، وعدد قليل من شعره فى غيرها مثل النزاريات والمذهبة وغيرها.

وقد عد بعض النقاد القدماء رواية هاشميات الكميت أساساً للتخرج فى الشعر العربى لأنها من الشعر الذى لا غنى لطالب الأدب عن روايته وحفظه.

قال الخوارزمى :

« من روى حوليات زهير، واعتذارات النابغة، وأهاجى الحطيئة، وهاشميات الكميت، ونقائض جرير، والفرزدق، وخمريات أبى نواس، وزهديات أبى العتاهية، ومراثى أبى تمام، ومدائح البحترى، وتشبيهات ابن المعتز، وروضيات الصنوبرى، ولطائف كشاجم، وقلائد المتنبى. ولم يتخرج فى الشعر، فلا أشب الله تعالى قرنه».

وتتألف هاشميات الكميت من مجموعة من القصائد والمقطوعات فهى تضم ست قصائد أطولها فى مائة وثمانية وثلاثين بيتاً وهى بائيته المشهورة التى سنحلل أبياتاً منها، وأقصرها فى عشرين بيتاً، ثم من خمس مقطوعات قصيرة اثنتان منها فى سبعة أبيات، وثلاث فى بيتين.

وتعد هاشميات الكميت تطوراً واضحاً لما أصاب العقل العربى من رقى وتطور لأنها تشتمل على حجاج وجدال يخرج منه الشاعر إلى إثبات حق الهاشميين فى الخلافة فهو قد أخرج الشعر من أبوابه القديمة إلى باب جديد هو باب التقرير والاحتجاج للعلويين والدفاع عنهم ولذلك شبهوا شعره بالخطب.

ويلاحظ على الهاشميات أنها أنشدت لخدمة النظرية الشيعية بصفة عامة والزيدية بصفة خاصة دون اهتمام بذكر الأشخاص وأسمائهم وألقابهم لذلك عدت دستوراً للمذهب الزيدى الشيعى لاشتمالها على مبادئ الحزب وأصوله وما يشترط فى إمامه. فهى تصور مذهب الزيدية خير تصوير، وتعد الهاشميات من هذه الناحية فتحاًجديداً فى الشعر العربى لأننا لانجد شاعراً قبل الكميت وقف جانباً كبيراً من شعره على الدفاع عن مذهب سياسى أو دينى، وإنما كان الشاعر يقول الأبيات أو القصيدة فى تأييد هذا المذهب أو ذاك.

ولم تكن هذه الهاشميات جديدة فى موضوعها فحسب، وإنما كانت جديدة أيضاً فى خصائصها العامة وأبرز هذه الخصائص أن أكثرها طويل تجاوز أبياته مائة بيت وإن الكميت يخالف فى مطالعها ما اعتاده الشعراء قبله من وصف الأطلال أو النسيب فيبدأ إحداها بالتقريع والوعظ :

ألا هل عمٍ فى رأيه متأمـــل؟ وهل مدبر بعد الإساءة مقبـــل؟

ويبدأ بعضها بوصف ما يحسه من الشوق ولكن لا إلى النساء وإنما إلى بنى هاشم كما فى قصيدته هذه، وكما فى ميميته التى أولها:

من لقلـــب متيم مستهـــام غـــير ما صبـــوة ولا أحـــلام

ويخالف الكميت فيها الشعراء أيضاً بأنه لم يجعل وصف الناقة ممهداً للمديح، وإنما يأتى به فى آخر القصيدة بعد الفراغ من مدح بنى هاشم.

وتشيع فى الهاشميات عاطفة الحزن لمصير بنى هاشم والسخط على بنى أمية الذين استأثروا بالخلافة واغتصبوها من أصحاب الحق فيها، والسخط على الناس الذين استكانوا لبنى هاشم ونكصوا عن الانتصار لآل البيت، وهى عاطفة تشيع فى جميع أشعار الشيعة وأنصارهم، وكان الكميت صادقاً فى عاطفته، مخلصاً فى حبه لبنى هاشم.

وتعد قصيدة «طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب » من أشهر هاشميات الكميت فقد أبدع فيها الشاعر لذلك احتلت منزلة رفيعة فى أدبنا العربى.

وهى من الشعر السياسى الذى يختلط فيه مدح آل البيت بهجاء بنى أمية، وما الشعر السياسى إلا مدح وهجاء وحماسة.

ويروى أن الكميت جاء بهذه القصيدة إلى الفرزدق لما قدم الكوفة ليعرضها عليه وكانت أول ما قاله من الهاشميات وقال له : يا أبا فراس، إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدى، قال له : صدقت، أنت ابن أخى، فما حاجتك ؟ قال : نفث على لسانى فقلت شعراً، فأحببت أن أعرضه عليك، فإن كان حسناً أمرتنى بإذاعته، وإن كان قبيحاً أمرتين بستره، وكنت أولى من ستره على. فقال له الفرزدق : أما عقلك فحسن، وإنى لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك، فأنشدنى ما قلت : فأنشده هذه القصيدة ... فقال له الفرزدق : يا ابن أخى، أذع ثم أذع، فأنت والله أشعر من مضى ، وأشعر من بقى.

وفيما يلى تعريف بالكميت وتحليل موضوعى وفنى لجزء اخترناه من هاشميته الشهيرة (طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب)، والنص المختار من القصيدة يعبر عن حبه لبنى هاشم ودفاعه عنهم والرد على معارضيهم، ويتضمن أربعة أفكار رئيسية هى : حبه لهم، ومواقفه فى تأييدهم وحقهم فى الخلافة وأنهم الصفوة المختارة.

أولاً

التعريف بالكميت

هو الكميت بن زيد المنتهى نسبه إلى قبيلة أسد المضرية. ولد بالكوفة سنة ٦٠ هـ، وبها نشأ وتثقف، وكانت الكوفة وقتئذ مقر المتشعيين لبنى هاشم، الناقمين على بنى أمية استئثارهم بالحكم، كما كانت حاضرة الأدب واللغة والعلم، فأخذ عن علمائها علوم الدين والأدب فأضاف إلى الشعر ثقافة علمية ولغوية غزيرة.

وقد اتصل الكميت ببيئات المتكلمين، وتلقن منهم طرقهم فى الجدال والحوار والاستدلال، وتحول يستخدمها فى شعره والخروج منها إلى أن الشيعة أصحاب الخلافة. ويلتزم الكميت فى جدله وحواره قوانين علم المنطق من حيث الإتيان بالمقدمات الصحيحة للوصول إلى النتائج الصحيحة أيضاً. ويعد أول من فتح للشيعة باب الاحتجاج لمذهبهم ودلهم على طرق هذا الاحتجاج، وهذا لايعتمد على الإقناع الباطل إنما يعتمد على الإقناع الفعلى ويدعم طرقه بالاستشهاد بالقرآن الكريم وخاصة الآيات التى تقرر حق الأقربين.

وتذهب بعض الدراسات الحديثة إلى أن مجموعة شعره (الهاشميات تعد حجاجاً عقلياً، ومناظرات عقلية أكثر منها شعراً سياسياً بالمعنى القريب لهذا الشعر) [١].

ويمكن لدارس شخصية الكميت أن يتبين بوضوح جانبين فى حياته، أما الأول فتشيعه لآل البيت على المذهب الزيدى، وأما الثانى فعصبيته للمضرية ضد اليمنية.

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة : ٤٢٤.

ولما كانت نشأة الكميت فى الكوفة، وكانت الكوفة المركز الأساسى لحركات الشيعة ونشاطهم فى العصر الأموى لذلك تشيع الكميت. ولكنه كان شيعياً معتدلاً على المذهب الزيدى دون مغالاة أو تطرف.

وتتلخص عقيدته فى أن أبناء على أحق الناس بالخلافة وأن الأمويين قد اغتصبوا هذا الحق منهم، وهو لايكفر أبا بكر وعمر كما قال بذلك غلاة الشيعة بل يذهب إلى أنهما من صحابة الرسول ولايصح لمسلم أن يحكم بتكفيرهما وقد ذهب الكميت مذهب إمامه زيد بن على الذى قال بصحة إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وبذلك صحح خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على لمصلحة رآها الصحابة. وكان يتورع عن لعنهم، وقد وصل به الاعتدال إلى حد إخلاص الصحبة لمخالفه فى العقيدة، ومن ذلك ما كان بينه وبين الطرماح بن حكيم من صداقة وصحبة مع أن الطرماح كان من الخوارج، وهم يعادون الشيعة أكثر مما يعاديهم أهل السنة، وتعزى صداقته للطرماح إلى اتفاق الشاعرين فى معاداة بنى مروان.

وقد بلغ من حب الكميت لتشيعه أنه كان يصرف من يريد المناظرة معه من الخصوم فى مذهبه خشية أن تتحول المناظرة إلى قذف فى أئمته الذين يحبهم ويشغف بهم كما فعل مع حكيم بن عياش الكلبى الذى حاول أن يدخل معه مجادلاً فى نظريته فصرفه إلى العصبية اليمنية يناضل عنها.

وكان لسياسة بنى مروان المتشددة فى معاملة الشيعة أثرها فى نفسية الكميت وشعره فقد أخذت الدولة الأموية الشيعة بالشدة والعنف وتتبعوا أهل البيت بالقتل والتشريد والتعذيب فقتلوا الحسين بن على بكربلاء على صورة بشعة، كما قتلوا زيد بن على بن الحسين (١٢٢ هـ) الذى خرج على هشام بن عبد الملك، وجعلوا جثمانه بالكوفة وأحرقوه، ولما خرج ابنه يحيى بن زيد بن على بن الحسين على الوليد بن يزيد بخراسان قتلوه سنة ١٢٥ هـ وأحرقوا

جثمانه وذروا رماده فى الفرات. وكان لعنف الحجاج بن يوسف الثقفى بشيعة العراق الأثر الكبير فى نفوس الشيعة بخاصة ونفوس المسلمين بعامة.

وأسرف المروانيون فى خصومتهم للشيعة، وأفرطوا فى محاربة بنى هاشم حتى أنهم كانوا يلعنون عليا على منابرهم.

وقد تأثر الكميت تأثراً كبيراً بموقف المروانيين من الشيعة لذلك وجدناه يهجوهم ويرميهم بالجور، والانحراف عن جادة الدين، ويدعوا للثورة عليهم لسياستهم الغاشمة.

هذا وقد مات الكميت مقتولاً عام ١٢٦ هـ فى خلافة مروان بن محمد.

ثانياً

« النص »

١ - حبه لبنى هاشم

١ - طربت وما شوقا إلى البيض أطرب

ولا لعبا منى ، وذو الشيب يلعب

٢ - ولم يلهبنى دار ولا رسم منزل

ولم يتطربنى بنان مخضب

٣ - ولكن إلى أهل الفضائل والنهى

وخير بنى حواء، و الخير يطلب

٤ - إلى النفر البيض الذين بحبهم

إلى الله فيما نالنى أتقرب

٥ - بنى هاشم رهط النبى فإننى

بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

---

١ - طربت : هزنى الشوق . البيض : النساء الحسناوات. لعبا : لهوا. الشيب : بياض الشعر.

٢ - دار : المراد منزل الأحبة ينفى بذلك عن نفسه ماكان يفعله الشعراء من بكاء الديار والوقوف على الأطلال. رسم منزل : أثره. يتطربنى : يجعلنى أطرب. بنان : أطراف الأصابع والمفرد بنانة. مخضب : مصبوغ بالخضاب وهو الحناء.

٣ - النهى : جمع نهية وهى العقل.

٤ - البيض : المراد الأشراف. نالنى : أصابنى من أذى بسبب حبى لهم. رهط النبى : المراد أهله.

٢ - مواقفه فى تأييدهم

٦ - خفضت لهم منى جناحى مـــودة
إلى كنـــف عطـــفاه أهـــل ومرحـب

٧ - وكنت لهـم من هـــؤلاء وهؤلا
ء مجـنـا عـلـى أنـى أذم وأقصـــب

٨ - فقل للذى فى ظـــل عمياء جونة
ترى الجور عدلاً، أين - لا أين - تذهب؟

٩ - بأى كـــتاب أم بأيـــة سنـــــة
ترى حبهم عـارا عـــلى وتحســب؟!

١٠ - يعيـبوننى من خـــبهم وضلالهم
على حبكم، بل يسخـــرون، وأعجـــب

٦- مودة : حب . خفضت لهم جناحى مودة : المراد تواضعت لهم. كنف : ناحية. عطفاه : جانباه. مرحب : مكان رحيب واسع.

٧ - هؤلاء وهؤلاء : إشارة إلى الأمويين والخوارج. واكتفى بالإشارة إليهم لعدم اهتمامه بذكرهم. المجن : الترس الذى تتقى به الضربات فى الحرب. أقصب: اشتم.

٨ - ظل : المراد هنا ظلام. عمياء : ضلالة. جونة : سوداء. الجور : الظلم. لا أين : جملة دعائية معناها لا هديت إلى طريق الرشاد.

٩ - كتاب : المراد القرآن الكريم.

١٠- خبهم : خبثهم.

٣ - حقهم فى الخلافة

١١- وقـــالوا : ورثنـــاها أبانا وأمنا
وما ورثتـــهـــم ذاك أم ولا أب

١٢- يرون لهم حقا على الناس واجبا
ســفاها، وحــق الهاشمــيين أوجب

١٣- يقولون : لم يورث، ولولا تراثه
لــقد شـركت فيــه بكيل وأرحــب

١٤- فان هى لم تصلح لحى ســواهم
فــان ذوى الـقـربى أحـــق وأقرب

١١- قالوا : قال الأمويين . ورثناها : أى الخلافة.

١٢- سفاها : جهلاً وباطلاً.

١٣- لم يورث : أى أن الرسول لايرثه أحد. تراثه : وراثته. بكيل، وأرحب : فرعان ضعيفان من قبيلة همدان.

١٤- حى : قبيلة.

٤ - هم الصفوة المختارة

١٥- أناس بهم عزت قريـــش، فأصبـحوا
وفيهـم خبـــــاء المكرمـــــات المـطـنب

١٦- مصفون فى الأحساب، محض نجارهم
هـــم المحـض منا، والـصـــــريح المهـذب

١٧- لهم رتب فضـــل على الناس كلهم
فضائـــــــل يستعـــلى بهـا المـــترتـب

١٨- أولئـك إن شطت بـــهم غربة النوى
أمانى نفســـى، والهـــوى حيـــث يسقب

١٥- خباء : خيمة. المطنب : المشدود بالأطناب وهى الحبال.

١٦- محض : خالص مصفى. نجارهم : أصلهم. الصريح : الخالص.

١٧- رتب : درجات . فضل : زائدة. يستعلى : يرتفع. المترتب : الراغب فى أعلى المراتب.

١٨- شطت : بعدت. النوى : البعد. أمانى نفسى : المراد أملى فى الحياة. الهوى : الحب. يسقب : يقرب. والمعنى أن الحب يكون لأقرب الناس إلى القلب.

المعنى العام للقصيدة

يقول الكميت فى الأبيات (١ – ٥) إن الشوق قد هزنى، وأن ذلك ليس مبعثه حب النساء الجميلات أو الرغبة فى اللهو والعبث مع أن غيرى من الشيب قد يلهون ويلعبون، ولست ممن يتعلقون بالأطلال ويبكون على آثار الديار أو يستخفهم جمال النساء. ولكن طربى وشوقى مبعثه حبى لأهل الصفات الحميدة والعقول الراجحة وخير الناس شرفاً وفضلاً والخير جدير أن يطلب، هؤلاء الأشراف الذين أخلص لهم وأتقرب إلى الله بما ينالنى من أذى فى سبيل حبهم، ولا عجب فى ذلك فهم آل النبى الكريم الذين لا أرضى إلا بما يرضيهم ولا أغضب إلا من أجلهم.

ويقول فى الأبيات (٦ – ١٠) :

لقد أحببت بنى هاشم وتواضعت لهم عرفاناً لقدرهم وهم يكرمونني ويعطفون على فهم أهلى الذين ألقى لديهم كل ترحيب، وقد جندت نفسى للدفاع عنهم ضد خصومهم على الرغم مما ينالنى من ذم وإيذاء، ثم يتوجه باللوم والتوبيخ إلى كل من أعماه ضلاله عن حب آل البيت منحرفاً عن الطريق السليم ويدعو عليه بعدم الرشد ثم يتحداه أن يأتى بدليل من الكتاب أو السنة على خطئه فى الإخلاص لبنى هاشم، إن هؤلاء الأعداء الخبثاء يعيبوننى على حبى لكم أيها الأشراف ويسخرون منى وأنا لا أهتم بهم بل أتعجب من هذا الموقف المتعنت.

ويقول فى الأبيات (١١ – ١٤) :

لقد زعم الأمويون أنهم ورثوا الخلافة عن آبائهم وأمهاتهم لأنهم قرشيون وأن طاعة الناس لهم حق واجب وهذا زعم فاسد لبعض أنسابهم عن الرسول

وبالتالى فحكمهم باطل لاتجوز طاعته فالهاشميون أحق بالخلافة وبطاعة الناس لهم لأنهم آل النبى. وقد يقول الأمويون إن النبى لايرثه أحد وهذا القول عليهم لا لهم فلولا الوراثة وقرابة قريش للرسول ما قصرت الخلافة عليها ولكانت مباحة لجميع القبائل حتى (بكيل وأرحب) مع أن – الأمويين يقررون أنها حق لقريش الذين هم منها، فإذا تحددت الخلافة فى قريش وحدها وجب أن تكون لأقرب الناس إلى رسول الله وهم بنو هاشم. والشاعر كما ترى بارع فى الجدال المنطقى المرتب الذى يفحم الخصم ويبطل حجته ويحقق هدفه من إثبات حق الهاشميين فى الخلافة والطاعة. والجدل بطبيعته يستند على الحقائق ولايحتاج إلى الخيال وبراعة التصوير ولذلك خلا هذا المقطع من الصور.

ويقول فى الأبيات (١٥ – ١٨) :

بالهاشميين صارت لقريش مكانتها الرفيعة فهم أصل المكارم والفضائل وأشرف الناس أحساباً، وأنقاهم نفوساً، وأعلاهم درجة ولهم فضائل يقتدى بها من يرغب فى الرفعة والمجد، وسأظل محباً لهم وإن باعدت بيننا الأيام فالأرواح متآلفة والقلوب متجاوبة هذا هو المعنى العام للأبيات

الخصائص الموضوعية :

أما الخصائص الموضوعية لها فواضح أن الكميت قد تناول فيها أكثر من موضوع، وقد استهلها بمطلع رائع عبر فيه عن مشاعره وحبه لآل البيت النبوى، وقد خرج فيه على مألوف الشعراء الذين كانوا يبدؤون قصائدهم بالغزل التقليدى الذى يملأ قلوبهم بالطرب والشوق إلى النساء.

ثم تحدث عن حبه لبنى هاشم، ودافع عنهم، ورد على من يعيبون عليه ذلك، ثم ناقش حجج الأمويين وقدم أدلة منطقية وخطابية فيها إقناع وقوة

تعتمد على فضائلهم الذاتية وصفاتهم الكاملة فهم لايستحقون الخلافة لقرابتهم للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فحسب، بل لأنهم أهل لها لما طبعوا وصلوا عليه من مناقب الخير، وصفات السيادة وهكذا أجاد الشاعر فى تصوير حبه لبنى هاشم والحديث عن صفاتهم وحقهم فى الخلافة يقول :

أولئك إن شطت بهم غربة النوى أمانى نفسى والهوى حيث يسقب

فالبيت تعبير قوى عن عاطفة حارة نقية وحب لوجه الله.

ويمكن لدارس هذه الأبيات أن يتبين الخصائص الموضوعية التالية:

أولاً : دعوة الكميت إلى نبذ الوقوف على الأطلال وبكاء الأحبة على عادة القصائد القديمة التى كان الشعراء يبدؤونها بالمقدمات الغزلية والطللية، إنما خصص بداية شعره بحب بنى هاشم آل البيت، والنسيب بهم.

وهذا التحول السلبى الذى أعطاه الكميت لمقدمة القصيدة العربية يعد ظاهرة فنية جديدة تلفت النظر فى الهاشميات. ومعنى هذا أن الكميت كان يدور فى عكس اتجاه الشعراء حين رفض أن يقف على الديار، أو يبكى الأطلال، أو يتذكر غراماً قديماً. ولعل هذه البداية ما جعلت الفرزدق بعد أن سمع منه مطلع قصيدته يقول له : « قد طربت إلى شئ ما طرب إليه أحد قبلك، فأما نحن فما نطرب، ولا طرب من كان قبلنا إلا إلى ما تركت أنت الطرب إليه».

ثانياً : لجأ الكميت فى مطلع قصيدته إلى عامل الإثارة والتشويق فقد استطاع أن يشد انتباه القارئ إلى ما يقول فقد نعى أن يكون سبب طربه شوقه إلى النساء الحسناوات، أو ميله إلى اللعب واللهو، أو حنينه إلى دار الأحبة، أو تذكره أيامه السعيدة بين أطلالها، أو افتنانه بزينة النساء، ثم أشار فى البيت

الثالث إلى سبب طربه وهو حبه وشوقه لأهل الفضائل، ثم يزيدهم إيضاحاً وبياناً فى البيت الرابع بوصفهم بالنفر البيض، ولكنه لم يحددهم، ثم يذكر فى البيت الخامس أنهم بنو هاشم، ويزيدهم تحديداً بقوله : «رهط النبى» فكان هذا الإيضاح المتدرج المتسلسل عامل إثارة وتشويق.

ثالثاً : يلاحظ أن أكثر الصفات التى مدح بها الكميت بنى هاشم من صفات النفس لا الجسم وهذا هو خير ما يمدح به ولهذا عاب عبد الملك بن مروان على عبيد الله بن قيس الرقيات قوله فيه :

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال له : أما لمصعب فتقول :

إنما مصعب شهاب من الله ـه تجلت عن وجهه الظلماء

وأما لى فتقول : على جبين كأنه الذهب.

وأكثر ما وصف الكميت به بنى هاشم أنهم بررة، أتقياء، شرفاء، علماء، كرماء، شجعان، كفاة، ساسة يأخذون بالرفق، ويراعون الحق، فصحاء، لايكثرون فى هذر، ولايصمتون مفحمين، إلى غير ذلك مما وصفهم به.

رابعاً : اعتمد فى قصيدته على أمرين : التصوير والاحتجاج، فهو يصور ما حل ببنى هاشم من الاضطهاد، والتنكيل والقتل، وما لقوه من العنت والبلاء تصويراً يثير الشفقة، ويستدر الدموع، وهو يحتج لحق بنى هاشم فى الخلافة فيقول لبنى أمية كيف تنكرون تراث بنى هاشم وأنتم تزعمون أن الخلافة إرث فى قريش وحدها، ولولا هذا التراث لكان لقبائل العرب الأخرى مثل ما لقريش من الحق فى الخلافة، وإلى هذا أشار الجاحظ بقوله : ما فتح للشيعة باب الحجاج إلا الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلح لحى سواهـــم فإن ذوى القـربى أحق وأوجب
يقولون : لم يورث ولولا تراثـه لقد شـركت فيه بكيل وأرحـب

وحرى بالذكر أن بائية الكميت التى منها هذه الأبيات جاءت مختومة بوصف الناقة مخالفاً بذلك عامة الشعراء القدامى الذين كانوا يأتون بوصف الناقة بعد مقدمتهم الغزلية أو الطللية وقبل الإتيان بالغرض الذى من أجله أنشئت القصيدة وربما عاد ذلك إلى أن قصد الكميت لم يكن كقصد غيره من الشعراء السابقين وهو عنده أهم من النسيب ومن وصف الناقة لذلك وجدناه يؤخر وصف الناقة بعد انتهائه من ذكر قصده من إنشاء القصيدة.

الخصائص الفنية :

نلاحظ أن التعبير جاء ملائماً لعاطفة الكميت التى تفيض حباً لآل البيت فأنت مثلاً ترى فى النص هذه الألفاظ الملائمة لهذه العاطفة مثل : (طربت، شوقاً، أهل الفضائل والنهى، الخير يطلب، النفر البيض، بحبهم، بنى هاشم، رهط النبى) كما أن تقديم الجار والمجرور على الفعل فى (بهم أرضى ولهم أغضب) يدل على شدة الإخلاص لبنى هاشم وقصر حبه عليهم وغضبه على كل ما يغضبهم فهو لايرضى إلا بهم ولايغاضب إلا من أجلهم. ولكننا نلاحظ أن كلمة (مراراً) تغض من قوة المعنى فإذا كان رضاه وغضبه دائمين من أجلهم فلا داعى لأن يقول مراراً التى قد يفهم منها أنه فى مرات أخرى ليس كذلك.

وفى المقطع الثانى مواقف نفسية متنوعة ولكل منها تعبيره الملائم ففى إعلانه عن حبه وتواضعه يستخدم «خفضت، مودة أهل، مرحب» وفى دفاعه وصلابته يختار «مجنا، أذم، أقصب» ووفى توبيخه للمعارضين وجدالهم

يستخدم «ظل، عمياء، جونة، الجور، لا أين، يصيبوننى، خبهم، ضلالهم، يسخرون.

ولما كانت الأبيات المكونة للمقطع الرابع مادحة للهاشميين، مشيدة بفضلهم، نابعة من حب صادق لهم وعاطفة جياشة ، جاءت الألفاظ والصفات ملائمة لذلك أيضاً مثل : (عزت المكرمات، مصفون، الأحساب، نجارهم، الصريح، المهذب، فضائل) وهى كما ترى قوية جزلة تلائم طبيعة المدح الذى يحتاج إلى الفخامة.

فالألفاظ تتسم بحسن الاختيار، والدقة التامة فى الانتقاء. على أنها جميعاً ألفاظ موحية معبرة، فعلى سبيل الملثال تراه فى البيت الأول يذكر «البيض» كناية عن النساء ليوحى بأنهن من ذوات النعمة والترف. وقوله «وذو الشيب يلعب» تبرير لعدم استهجان اللعب واللهو من مثله، ونلاحظ أنه بدأ الشطر الأول بقوله : «طربت» ثم ختمه بقوله «أطرب» كما بدأ الشطر الثانى بقوله «ولا لعبا» وأنهاه بقوله «يلعب» وتحس لهذا التلاعب بالألفاظ رنة موسيقية مقبولة.

وفى البيت الثانى يقول «ولم يتطربنى بنان مخضب» وربما سبق إلى ذهنك أنه يكرر حديثه عن النساء الحسناوات ولكنك إذا تأملت فى التعبير وجدت أنه ينفى عنه نفسه الافتنان بزينة المرأة المثيرة.

وفى البيت الثالث تجد فى قوله : «والخير يطلب» تعليلاً لحبه لبنى هاشم وتعلقه بهم. وفى وصفه النفر «البيض» فى البيت الرابع إشارة إلى أنهم من ذوى النعمة والشرف، وإلماح إلى وضاءة وجوههم بنور اليقين والصلاح. وفى وصفه بأنهم (رهط النبى) فى البيت الخامس تأكيد لاعتزازه بهم.

وفى البيت السابع يبرز قوة دفاعه عنهم وصموده حفاظاً عليهم فيصور نفسه بالترس الذى يتقى به المقاتل ضربات خصمه فى قوله : «وكنت لهم من

هؤلاء وهؤلاء مجناً، ثم انظر إلى استخدامه اسم الإشارة وتكراره تجده يوحى بكثرة الأعداء واستهانة الشاعر بهم واحتقاره لهم، وإذا كان «القصب» معناه القطع فإن الشاعر قد أوحى بقوله «أقصب» بقسوة مايصيبه من أذى الأعداء وسبهم وأنه أصيب فى بدنه. ويعبر عن شدة ضلال أعداء بنى هاشم فى البيت الثامن بقوله : «الذى فى ظل عمياء جونة» ويستخدم الاستفهام فى «أين تذهب» للتوبيخ أما قوله «لا أين» فقد عاد عليهم بالضلالة والبعد عن الرشاد. ونلمح فى قوله : «ترى الجور عدلاً» إيحاء بجهالة الأعداء ووصماً لهم بالعمى.

والاستفهام فى البيت التاسع للإنكار، وفى ضوء كلمة «تحسب» تجد معنى «ترى» فى قوله : «ترى حبهم عاراً» تظن وتزعم.

وتحس بحيرته ودهشته أمام موقف الخصوم من قوله «أعجب» فى البيت العاشر.

أما الأبيات من الحادى عشر إلى الرابع عشر، فقد عنى فيها الشاعر بمجادلة الأمويين بعبارات دقيقة وأفكار منطقية.

وفى البيت الخامس عشر تجد فى قوله : «وفيهم خباء المكرمات المطنب» بياناً لنسبة المكرمات والفضائل إلى قريش، وفى كلمة «المطنب» إيحاء بضخامة حظهم من هذه الفضائل.

وفى البيت السادس عشر تجد كلمات : «مصفون، ومحض، وصريح» فتسبق إلى ذهنك صورة اللبن الخالص النقى وهى صورة يريد بها إبراز نقاء أصولهم وأحسابهم وطهارتها.

وفى البيت السابع عشر فى قوله : «فضائل يستعلى بها المترتب» يصور

الفضائل بالسلم يصعد عليه الإنسان ليؤكد أثر هذه الفضائل فى رفعة المقتدين بهم والمهتدين بهديهم.

وفى البيت الثامن عشر فى قوله : «شطت، وغربة، والنوى» تتآزر الألفاظ لتنبت فى النفس شعوراً قوياً بالبعد والفراق، وقوله : «والهوى حيث يسقب» تعليل لشدة تعلقه بهم وتمنيه لقاءهم وقربهم.

وأغلب الأساليب فى النص أساليب خبرية غرضها الفخر بمنهجه فى الطرب فى البيتين الأول والثانى، والمدح فى الأبيات الثالث والرابع والخامس ، والفخر بإخلاصه لهم ودفاعه عنهم فى البيتين السادس والسابع، والذم فى البيت العاشر، والسخرية بتفكير الأمويين فى أحقية الخلافة بالوراثة، وتقرير حق الهاشميين بها فى الأبيات المكونة للمقطع الثالث، والمدح والثناء فى أبيات المقطع الرابع.

ومن الأساليب الإنشائية فى النص : (فقل) أمر للالتماس، و(أين تذهب؟) استفهام للتوبيخ، و (بأى كتاب أم بأية سنة؟) استفهام للنفى والإنكار.

– وقد استعان الكميت لإبراز عاطفته وتوضيح أفكاره وإبراز المعنوى فى صورة المحسوس بالصور الخيالية فاستطاع أن يكون أعمق تأثيراً، وأكثر إقناعاً، كما استطاع أن يهز المشاعر، ويثير العواطف.

ففى البيت الأول : (البيض) كناية عن موصوف هو الجميلات (ذو الشيب) كناية عن موصوف هو (كبير السن) . وفى البيت الثانى : (بنان مخضب) مجاز مرسل عن المرأة علاقته الجزئية فقد أطلق الجزء وأراد الكل وسر جماله الإيجاز والمبالغة والبراعة فى اختيار العلاقة بين المعنى الأصلى والمجازى فإن المرأة كثيراً ما تفتن فى تزيين يدها بالخضاب، وفى البيت

الثالث : (بنى حواء) كناية عن الناس وهى توحى بأن شرف العلويين من جهة الأم وهى السيدة فاطمة الزهراء أقوى ولذلك لم يقل (بنى آدم) . وفى البيت الرابع : (النفر البيض) كناية عن الأشراف وهم بنو هاشم، فالعرب كانوا يعتبرون البياض فى الجاهلية دليل السيادة والشرف وظل ذلك الاستعمال فى اللغة.

وفى البيت السادس : (جناحى مودة) استعارة مكنية صور فيها المودة طائراً وحذفه ودل عليه بشئ من لوازمه وهو (جناحى) (خفضت لهم منى جناحى مودة) كناية عن صفة هى تواضعه لهم وهى صورة رائعة تجسم المعنى وتزيده وضوحاً وتوحى بإجلاله لهم وعرفانه لأقدارهم وقد اقتبسها الشاعر من قوله تعالى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) . وفى البيت السابع : (وكنت لهم مجناً) تشبيه بليغ يوحى بصلابته فى الدفاع عن الهاشميين، وهو تشبيه منتزع من البيئة التى تكثر فيها الحروب. وفى البيت الثامن : (ظل عمياء) استعارة مكنية تجسم الضلالة وتجعل لها ظلاً، (الذى فى ظل عمياء) كناية عن أعداء الهاشميين وهى توحى ببعدهم عن الصواب وعدم إبصارهم الحق الواضح.

وفى البيت الخامس عشر : (فيهم خباء المكرمات) كناية عن نسبة المكرمات إليهم وهى منتزعة من البيئة البدوية وتوحى بأنهم أصل لكل مجد وشرف. وفى البيت السادس عشر : (مصفون فى الأحساب) استعارة مكنية تصور الأحساب فى طهارتها ونقائها بصورة حسية تجسم المعنى. وكذلك (محض نجارهم) استعارة مكنية تصور أصلهم بشراب مصفى.

ونلاحظ خلو الأبيات التى يجادل فيها الكميت الأمويين من الصور الخيالية، وهو أمر طبيعى فموقف الدفاع والجدل يستند غالباً إلى الحقيقة والمنطق أكثر مما يعتمد على الخيال وبراعة التصوير. وقد اعتمد الشاعر فيها

على إيراد حجة الخصم وإبطالها فى وضوح وتسلسل ظهر أثره فى المقابلة بين العبارات فى كل بيت من هذه الأبيات مثل (قالوا ورثناها ... وما ورثتهم.. إلخ).

ولذلك نجد فى القصيدة فكرة كما نجد دفاعاً فيه الكثير من المنطق وإذا كان الشعر بعيداً بطبيعته عن المنطق والاتجاه إلى الفكر المرتب فإن "الكميت استطاع فى هذه القصيدة أن يخضع الأسلوب الشعرى لبعض قواعد الفكر والمنطق فهو يسوق حجة الأمويين ثم ينقضها.

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن هذا النص تتجلى فيه ثقافة العصر العقلية وأخذ الكميت منها بحظ وافر مما ساعد على رقيه العقلى وأخذه بأساليب العلماء والمتكلمين فى عرض الآراء وطرق الاستدلال فتجلت فى النص البراعة فى التمهيد، وحسن الإنتقال من فكرة إلى فكرة، وفى المزج بين العاطفة الدينية والمذهب السياسى، وفى ردوده القوية التى أجاد عرضها وترتيبها حتى لقد قال فيه النقاد «إن الكميت أول من فتح للشيعة الطريق لمناظرة خصومهم بالشعر، وقوة الرد عليهم».

وفى النص بعض محسنات بديعية جاءت عفو الخاطر فوضحت المعنى، وأكدت الفكرة، وكانت لوناً من ألوان الموسيقا الداخلية فيه ومنها المقابلة التى ذكرناها آنفاً، ومنها الطباق بين الجور وعدلا.

ونلمس فى النص حرارة العاطفة الحزينة، وصدق الإيمان، وقوة الإعجاب بآل البيت، وشدة الإخلاص للعقيدة لأنه كان يدعو لآل البيت مستجيباً لنداء عقيدته، وحبه على عكس شعراء بنى أمية الذين كانوا فى شعرهم يستجيبون لنداء المنفعة والمال. وتمتلئ القصيدة بعاطفة الكميت الجياشة فى حب آل البيت ولا غرو فموضوعها هو حب آل البيت، وهو

موضوع وجد فيه الشاعر مجالاً خصباً لمشاعره ووجدانه الصادق، وقد استطاع الكميت بذلك أن يذكى العواطف، ويلهب الشعور وأن يمزج فى براعة فائقة بين العاطفة الدينية والمبدأ السياسى مما كان له أكبر الأثر فى روعة القصيدة وجمالها.

والنص لون رائع من الشعر العلوى يمدح فيه الكميت بنى هاشم ويدافع عن حقهم فى الخلافة ويجادل خصومهم جدالاً منطقياً يصور عنف الصراع بين الهاشميين والأمويين ويرسم خطوطاً بارزة للمنافسة الحزبية التى شاعت فى العصر الأموى.

والأفكار التى تناولها الشاعر عميقة يبدو فيها التفكير السليم وقوة الحجة، والترتيب المنطقى والمزج بين المبدأ السياسى والنزعة الدينية مما جعل النقاد يعتبرون الكميت فاتح باب الجدل والمناظرة للشيعة ويعدونه شاعرهم الأول.

والصور والأخيلة قليلة فى النص لاعتماد الشاعر على الإقناع المنطقى وعلى التأثير عن طريق العاطفة الدينية المتدفقة والولاء الصادق لآل البيت ومع ذلك فإن الصور التى جاء بها رائعة ومتأثرة بالبيئة.

وتبدو الروح الإسلامية فى النص واضحة كما نرى فى ترديد الكلمات والعبارات الإسلامية مثل «إلى الله فيما نالنى أتقرب» «بأى كتاب أم بأية سنة».

ويبدو تأثر الكميت بالقرآن الكريم فى البيت السادس حيث يذكرنا بقول الله سبحانه «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» والصورة فى هذا البيت توحى بالخضوع والرفق والتواضع كما سبق القول.

ويبدو تأثر الكميت بالقرآن الكريم واضحاً فى أبيات أخرى عديدة بالقصيدة لم نذكرها هنا مثل قوله :

وجدنا لكم فـى آل حاميم آيــة تأولـها منـــا تقـى ومعـــــرب

وفى غيرها آيا وآيـــــا تتابعـت لكم نصب فيها لذى الشك منصب

فـهو يشـيـر فى البـيت الأول إلى قـولـه تعالـى : ﴿لا أسألكم عليه أجـراً إلا المودة فى القـربـى﴾، وفى البـيت الثـانى إلى قـولـه سبـحـانه : ﴿ إنما يريـد الله ليـذهب عنكم الرجس أهل البـيت ويطهـركم تطهـيـراً ﴾ وإلى قـولـه - عز وجل : ﴿وآت ذا القربى حقه ﴾. وإلى قوله جل اسمه : ﴿ فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى ﴾.

ومثل قوله :

ألم ترنى فى حب آل محمـــــد أروح وأغـــو خائفاً أترقـــــب

فهو اقتباس لتلك العبارة الرائعة التى يرسم فيها القرآن صورة لموسى عليه السلام حين استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه، فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب.

ومثل قوله :

فبوركت مولوداً وبوركت ناشئا وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

وبورك قبر أنت فيه وبوركـــت بـــه ولـــه أهـــل لـــذلك يـــثرب

فهو تأثر واضح بتلك الآيات الكريمة التى يتحدث فيها سبحانه عن يحيى وعيسى عليهما السلام سلاماً منه – عز وجل – عليهما يوم ولدا ويوم يموتان ويوم يبعثان.

ويبـدو تأثر الكمـيت الواضح بالإسـلام فى مـشـاعـره وألفـاظـه ومـعـانيـه، فالمعانى الدينية تسيطر على قصائد الكميت وتطبعها بطابعها فهو فى مدحه

لآل البيت وفى هجائه لبنى أمية يدور فى دائرة دينية، ويعبر عن عاطفة دينية متأصلة فى نفسه، بل عن عقل دينى سيطر عليه، والمعانى التى يمدح بها الهاشميين معانٍ إسلامية والصفات التى يهجو بها بنى أمية هى الصفات التى تباعد بين صاحبها وبين الإسلام.

وقد سلك الشاعر فى قصيدته منهجاً مشوقاً حيث كان المطلع مثيراً للانتباه بتأخيره التصريح لمن يحبهم وهم الهاشميون حتى نهاية المقطع الأول وفى خلال ذلك تدرج بالتشويق شيئاً فشيئاً إذ كان ينفى عن نفسه الميل إلى اللهو واللعب وبكاء الديار والأطلال حتى بلغ بالمشاعر غايتها فصرح بحبه لآل البيت، وجاءت ألفاظه فى النص ملائمة لكل موقف مسايرة للجو النفسى فيه وتمتاز فى مجموعها بالجزالة والوضوح وقد تأثر بهذا المطلع كثير من الشعراء ومنهم البارودى فى العصر الحديث من ذلك قوله :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب وغيرى باللذات يلهو ويعجب

ولا ريب أن مطلع هذه القصيدة الهاشمية يوحى بالتربية الإسلامية الجادة التى نشأ عليها الكميت، والتى جعلته ينفر من اللهو والعبث ويبعد عن الغزل ويتقرب إلى الله بالصبر على الأذى فى سبيل المبدأ وكذلك التمسك بما جاء فى الكتاب والسنة والرجوع إليهما كلما دعت الضرورة.

وهناك ملامح شخصية أخرى للكميت تبدو من النص، مثل شدة حبه لآل البيت، وقوة نزعته الدينية، وترتيب أفكاره، وقوة حجته، وقدرته على الجدال، وتأثره بالجدل الذى أثير فى عصره حول مسألة الخلافة واختصاص قريش بها، ومثل قوة تحمله وصبره على الشدائد فى سبيل أهل البيت.

والخصائص الفنية لشعر الكميت كما تتضح فى هذا النص هى عمق

الأفكار والميل إلى التحليل والتفصيل، ومزج الأفكار بالعاطفة واستخدام التشويق فى التمهيد لموضوعه والقدرة على الاقناع ووضوح اللفظ وتنويع الأسلوب بين الخبر والإنشاء.

– ويستطيع الدارس للنص أن يضع يده على تأثر الشاعر بالبيئة العربية فقد استمد الشاعر كثيراً من صوره منها مثل «كنت لهم مجناً – فيهم حباء المكرمات – ومما جاء متأثراً بالبيئة فى أبيات بالقصيدة لم نذكرها هنا قوله يفتصلوا أفلاءها – ضباع وأذؤب – أناخوا لأخرى ذات ودقين....».

هذا وقد أدى تشيع الكميت وتعصبه على القحطانية إلى اختلاف الناس فى منزلته الشعرية فمنهم من تحامل عليه وغض من شعره، ومنهم من قدمه على شعراء الجاهلية والإسلام كمعاذ الهراء، وقد روى عن الفرزدق أنه كان معجباً بشعره، وأنه هو الذى شجع الكميت على إذاعة شعره فى الناس، ونحن نعلم ما رمى به الفرزدق من التشيع. وقد روى أنه قيل له : أحسن الكميت فى مدائحه فى تلك الهاشميات فقال : « وجد آجراً وجصا فبنى » أى وجد مادة غنية لأشعاره فأحسن فى نظمه.

وبعد : فهذا هو تحليلنا الموضوعى والفنى لتلك الأبيات التى اخترناها من أشهر هاشميات الكميت. وإذا كان لنا من كلمة نختم بها هذا التحليل فإننا نذكر أن هذا الشاعر قد بلغ الذروة فى حبه لآل البيت ... وهو حب نابع من قلبه، وانعكس على شعره الذى لم يقصد به سوى التعبير عن هذا الحب، وابتغاء مرضاة الله .. يشهد بذلك ما صرح به فى الأبيات التى سبق تحليلها، كما يشهد بذلك أنه بعد أن أبدع لاميته التى مطلعها:

ألا هل عم فى رأيه متأمــل وهل مدبر بعد الإساءة مقبـــل؟

أنشدها الإمام جعفر الصادق فى أيام التشريق (بمنى) فدعا له، وأعطاه

ألف دينار، وكسوة، فقال له الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردتها لأتيت من هى فى يديه، ولكنى أحببتكم للآخرة، فأما الثياب التى أصابت أجسادكم فإنى أقبلها لبركتها، وأما المال فلا أقبله [1].

ويروى أنه دخل على فاطمة بنت الحسين رضى الله عنها فقالت : هذا شاعرنا أهل البيت، وجاءت بقدح فيه سويق فحركته بيدها، وأسقته له فشربه، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب، فهملت عيناه، وقال : لا والله لا أقبلها، إنى لا أحبكم للدنيا [1].

(١) انظر : خزانة الأدب ١/ ٧٠.
والأغانى : ١١٨/١٥.

أدب المعتـــزلة

تمهيد: حظى المعتزلة – دون غيرهم – من الطوائف والفرق الإسلامية المختلفة بنصيب كبير من البحوث والدراسات، ولا عجب فى ذلك؛ فهم يمثلون مدرسة فكرية كبيرة كان ظهورها نقطة تحول واضحة فى تاريخ الفكر الإسلامى.

ويرتبط ظهور هذه المدرسة باسم (واصل بن عطاء)، وبالحادثة المشتهرة التى وقعت بينه وبين شيخه الحسن البصرى فى مسجد (البصرة)، حينما اختلف معه حول مرتكب الكبيرة، ثم اعتزل مجلسه، وانفرد بحكم يخالف حكم شيخه فى هذه القضية. فهذه الحادثة تشكل السبب المباشر الذى تكون بعده المذهب بشكل رسمى، وهو مذهب يقوم على خمسة مبادئ أساسية هى:

١ – التوحيد

٢ – العدل.

٣ – الوعد والوعيد.

٤ – المنزلة بين المنزلتين.

٥ – الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولهذه الفرقة أسماء أخرى (غير المعتزلة)، فهم يسمون – مثلاً – (أهل العدل)، لقولهم بالاختيار، وأن الإنسان فى قدرته أن يفعل الخير، ويفعل الشر، ومن أجل هذا يعذب العاصى، ويثاب المطيع. ويسمون – كذلك – (أهل التوحيد)؛ لأنهم أثاروا تلك المسألة المتعلقة بالله وصفاته، وهل هذه الصفات زائدة عن ذات الله تعالى أو هى عينها؟ وكان كثير من المسلمين الأولين يتحرجون من الخوض فى مثل هذه المسألة، ويرون الوقوف عند النصوص

من غير بحث، ويفوضون أمر علمها إلى الله تعالى، ويقولون: (إنا نؤمن بالله وأنه عالم قدير مريد، ولكن لا نبحث فيما هى القدرة، وما هو العلم)؛ أما المعتزلة فقد أثاروا هذا البحث، وقرروا أن هذه الصفات ليست زائدة عن الذات، وأن الله عالم قادر بذاته، أو نحو ذلك، فهم قد وحدوا الله تعالى، ولم يعددوه بتعدد الصفات، وكان من نتيجة هذا البحث تلك المسألة الأخرى التى كان لها دوى كبير فى العصر العباسى، وهى مسألة (خلق القرآن الكريم) ... ذلك أن المعتزلة لما وحدوا الله وصفاته، وقالوا: إن الله قديم لا أول له، رأوا أنه من المستحيل: أن يكون القرآن الكريم قديماً لا أول له أيضاً، وأن يكون صفة من صفات الله تعالى؛ وقالوا إن القرآن الكريم وكل الكتب المنزلة – كالتوراة والإنجيل – كلام يخلقه الله، فيصل إلى النبى عن طريق ملك أو نحوه. وكان كثير من خصومهم يرون أن الواجب هو الإيمان بأن القرآن الكريم كلام الله، وأن القول فيما وراء ذلك كالبحث فى منزلة كلام الله من الله، بحيث لا يستطيع العقل البشرى إدراكه، فيجب أن نسلم به، ولا نسأل عن كيفيته وكنهه.

وأياً ما كان الأمر فقد أثار المعتزلة هذه المسألة، ودفعوا الناس إلى الخوض فيها، حتى إنها ظلت تشغل المسلمين من عهد المأمون إلى عهد المتوكل، وثار فيها الجدل فى الأمصار، وعذب فيها كثير من الناس.

ومما تقدم يتبين أن هذه الفرقة كانت تمثل مدرسة فكرية لها طابع خاص فيما تثيره من مسائل، وفيما تقرره من أصول، وفيما تتسم به من ثقافة عقلية تتسم بالعمق والحرية والتجديد.

وقد استطاعوا بنفوذهم العقلى أن يحققوا لأنفسهم نصيباً لا بأس به من النفوذ السياسى، ولا سيما فى عهد – المأمون والمعتصم والواثق من خلفاء الدولة العباسية – إذ كان هؤلاء الثلاثة من أكبر أعوانهم وأنصارهم؛ بل لقد

كانت مبادئ المعتزلة فى عهدهم، تمثل السياسة الدينية الرسمية للبلاط العباسى. وإذا كان نجم هذه الفرقة قد أفل بمرور الأيام – ولا سيما نكبتهم على يد المتوكل وظهور حزب الأشاعرة – فإنهم – بدون شك – قد أثروا تأثيراً كبيراً فى التفكير الإسلامى، فقد قاموا بمهمة التوفيق بين الإسلام والفلسفات المختلفة، كما استطاعوا أن يقفوا وقفة قوية فى وجه الزنادقة والملحدين وأصحاب العقائد الفاسدة، وأن يتخذوا من ثقافتهم العقلية سلاحاً يواجهون به كيد أولئك الذين كانوا يستخدمون نفس السلاح فى موقفهم العدائى من الإسلام.

ومصادر التاريخ العربى تعطينا صورة واضحة المعالم عن نشاط المعتزلة فى هذا الميدان، وتوضح لنا مدى حماستهم للدفاع عن الإسلام ومناظرة أعدائه، ودحض حججهم وإبطال مزاعمهم، فقد ألف واصل بن عطاء – مثلاً – كتاباً فى الرد على المانوية، وعقد المناظرات لمناقشتهم وتفنيد أباطيلهم؛ بل إنه جاب الآفاق ورحل إلى البلدان مع أصحابه وأعوانه لهذا الهدف..

ولقد نوه أحد الشعراء بذلك فقال:

ملقــن ملهــم فيمـا يحـاوله جـــم خواطـره جواب آفــاق

وكان (أبو الهذيل العلاف) كثير المناظرة لخصومه من اليهود والمجوس والزنادقة والملحدين، وروى عنه أنه ألف ستين كتاباً فى هذا السبيل... وهكذا كان (النظام) و (ثمامة بن أشرس)، و (بشر بن المعتمر)، و (الجاحظ)، وغيرهم من دهاقين المعتزلة، ولقد مكنهم من ذلك – ثقافتهم الواسعة، وتمكنهم من أساليب الجدل والمناظرة والمنطق التى كانوا يدعمون بها أقوالهم وآراءهم.

هذه إلمامة سريعة عن نشأة هذه الفرقة، ومبادئها. وآرائها، ونشاطها..

ومن هذه الإلمامة يتضح لنا – من بين ما يتضح – أنها فرقة كانت تحترم العقل، وتعده أساساً مهماً فى المناقشات الدينية، والمسائل الكلامية، فلا غرو إذا عرفوا فى التاريخ بأنهم أصحاب الفكر الحر، وبأنهم المفكرون الأحرار الذين شقوا لهم طريقاً جديداً فى البحث يختلف أيما اختلاف عن طريق الأثرية من أهل السنة الذين كانوا ينفرون من الكلام والجدل، ويمتنعون عن الخوض فى كل ما جاءت به فلسفة اليونان وما شابهها من الفلسفات.

أثر المعتزلة فى العلوم العربية

لم يقف أثر المعتزلة فى التفكير الإسلامى عند الحد الذى سبق التنويه به، وإنما كان لهم أثر واضح فى تأسيس مبادئ العلوم العربية التى تتصل بمعانى الكلام وأشكاله وترتيب أفكاره، كالبلاغة، والبحث، والمناظرة، فمن المعروف أن هذه العلوم قد نشأت فى بيئات المتكلمين، وأنهم هم الذين وضعوا مبادئها، ومن المعروف – كذلك – أن للمعتزلة مذاهب نظرية كثيرة فى البلاغة العربية ابتدعوها من ثقافتهم ومراسهم الطويل لفنون القول، وأساليب الكلام؛ فعمرو بن عبيد، وابراهيم النظام، وثمامة بن أشرس، وبشر بن المعتمر، والجاحظ.. هؤلاء جميعاً كان لهم الفضل الأكبر فى تأسيس البلاغة العربية.

أدب المعتزلة

نقصد بأدب المعتزلة: كل نتاج أدبى تتمثل فيه عناصر فكرهم الجديد، وتتضح فيه آثار ثقافتهم الخاصة التى كانت هى بدون شك عاملاً من أجل العوامل التى أعطت لأدبهم صبغة خاصة يمكن أن يتميز بها عما عداه.

وقبل أن نرصد خصائص هذا الأدب يجدر بنا أن نشير إلى أن هذا الأدب لم يصل إلينا منه إلا نزر يسير لا يكاد يقاس بتلك الكثرة الكثيرة التى نسمع بها عن مؤلفاتهم.

وقد علل أحد الباحثين لذلك؛ بأن أهل السنة كانوا ينظرون – دائماً – إلى المعتزلة على أنهم زنادقة، وإلى كتبهم على أنها شنع وضلالات ومن هنا فإنهم راحوا – وبخاصة بعد أفول نجم المعتزلة – يشنون الغارة تلو الغارة على التراث الأدبى والفكرى لهذه الفرقة، بالإحراق والتدمير، حتى لا يتاح للناس أن يطلعوا على هذا التراث. كذلك يجدر بنا أن نشير إلى أن تكوين المعتزلة – من الناحية الثقافية – قد هيأهم لمجال النثر أكثر مما هيأهم لمجال الشعر؛ ولذلك فقد نبغوا فى النثر بدرجة لا يدنو إليها نبوغهم فى الشعر، ولذلك أيضاً كان شعرهم – من ناحية الكم – أقل من نثرهم.

خصائص نثر المعتزلة

يستطيع المتأمل لنثر المعتزلة، سواء أكان خطابة أم مواعظ أم [illegible] أم رسائل أم غير ذلك – أن يلحظ أن هذا النثر قد جاء مختلفاً – فى مضمونه وشكله – عما عداه من نثر. أما من ناحية المضمون، فقد عالجوا به – إلى جانب الموضوعات المعروفة من قبل – كل ما انفعلت به عقولهم، وأفعمت به مشاعرهم من مشاهد الكون وأسراره وحقائقه، وحسبنا أن ننظر إلى ما بين أيدينا من نثرهم، فنراه معبراً عن قضايا الإنسان والحيوان والطير والنبات والطبيعة والطب والفلسفة والدين والأخلاق والطباع والاجتماع وأحوال النفس، والبيان والتبيين، والسياسة، والجد، والهزل، والسود، والبيض، والترك، والعرب، والعجم، والنصارى، والمسلمين، واليهود... وهلم جرا.

لقد عبر نثر المعتزلة – فى مضمونه – عن هذا ونحوه، واستوعب كل ما يمكن أن يجول فى خاطر الإنسان من معنى أو مادة.. فهو نثر يتسم بجدة الأفكار وخصوبتها واتساعها.

ومن ناحية أخرى؛ فقد جاء نثرهم محتوياً على ظواهر جديدة يمكن رصدها فيما يلى:

١ – استخدام المنهج الجدلى الذى يقوم على البراعة فى دعم الموضوع بالدليل والحجة.

٢ – استخدام التعبير الأدبى فى معالجة الموضوعات التى يغلب عليها الصبغة العقلية، نحو ما كتبه الصاحب بن عباد فى رسالته الطبية، وما كتبه التوحيدى عن العالم وتناقض أحواله.

٣ – التهكم الذى يقوم على أسس فكرية ونفسية، لا على أحقاد وعداوات فردية.

٤ – ظاهرة المرح والدعابة، وهى ظاهرة لم تكن لمجرد العبث أو اللهو، ولكن كانت لهم فى ذلك فلسفة خاصة أوضحها الجاحظ فى كتابيه: (الحيوان) و (البخلاء).

هذا عن المضمون، أما الناحية الشكلية المتصلة بالألفاظ والأساليب، فقد جاء نثرهم ملتزماً بنظريتهم فى الكلمة وحسن اختيارها ووضعها فى المكان المناسب لها، والمطابقة بينها وبين ما يقتضيه المقام، كما جاء ملتزماً بنظريتهم فى السجع.

وحسبنا فى هذا الصدد أن نقرأ – مثلاً – صحيفة (بشر بن المعتمر) التى أوردها الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين)، والتى تعد – بحق – وثيقة فى تجلية القواعد الأساسية للبيان العربى، وفى بيان الأسس التى يجب أن تقوم عليها الخطابة، ثم فى بيان الأمور التى يجب على الخطيب مراعاتها، حتى تتهيأ له أسبابه، وتتوفر له مقوماتها، وتؤدى غاياتها المرجوة.

وأن نقرأ خطبة واصل بن عطاء التى أوردها الأستاذ (عبد السلام هارون) فى المجموعة الثانية من (نوادر المخطوطات)، فهى خطبة تعطينا صورة عن بلاغة المعتزلة، وتمكنهم من اللغة، وحسهم الشديد بمواقع الكلمات، وقدرتهم

على التصرف فى وجوه القول.

ومن ناحية أخرى؛ فإنها تصور مبلغ حماسهم الدينى، ومدى انفعالهم الشديد بهذا الدين، وحرصهم على أن يدعوا إليه ويدافعوا فى سبيله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ومن ناحية ثالثة، فإنها ذات دلالة واسعة على بلاغة (واصل)، وعلى مقدرته الخطابية، وحسبه أنه قد استطاع فيها أن يتجنب الكلمات الرائية، حتى لا تظهر اللثغة القبيحة التى كانت فى لسانه، وأنه على الرغم من طول الخطبة وارتجالها فى حفل جامع فإنه قد صاغها صياغة بارعة متماسكة، فنال الإعجاب والتقدير، وطغى على الخطباء الذين سبقوه، مما جعل الشعراء يشيدون بهذه الحادثة.

وأن نقرأ رسالة الجاحظ إلى (أحمد بن دؤاد) .. تلك الرسالة التى تتجلى فيها خصائص المدرسة الجاحظية فى النثر العربى، والتى يبدو فيها الجاحظ – كما يبدو فى بقية مصنفاته – فناناً كبيراً فى تنميق الألفاظ، وتنسيق الجمل، وتركيب العبارات... وما إلى ذلك.

خصائص شعر المعتزلة

يستطيع القارئ لشعر المعتزلة أن يرصد له هذه الخصائص:

أولاً: أن نثر المعتزلة كان أفسح مجالاً للتعبير عن ثقافتهم، وأكثر تمثيلاً لمذهبهم من الشعر، والسبب فى ذلك – كما سبق التلميح – هو أن ثقافة المعتزلة كانت فى معظم أمرها ثقافة عقلية، وكان هدفهم الأساسى هو الدفاع عن دينهم ومبادئهم من خلال هذه الثقافة، ولما كان النثر أرحب مجالاً للقيام بهذه المهمة، كان من الطبيعى أن تكون الخصائص المذهبية والثقافية فيه أوضح من الشعر.

ثانياً: أن شعر المعتزلة لم يكن – كما أشرنا آنفاً – بالكثرة التى كان بها نثرهم، وأن معظم شعرائهم لم يبلغوا فى شعرهم إلى المستوى الذى بلغوا إليه من النثر، ويمكن أن يقال فى تعليل هذه الظاهرة – أيضاً – ما قيل آنفاً من أن مهمة المعتزلة وطبيعة تكوينهم الثقافى، كانت تؤهلهم للإجادة فى النثر، والتوسع فى فنونه أكثر مما تؤهلهم لذلك بالنسبة إلى الشعر؛ وذلك لأن للشعر مجالاً خاصاً هو التعبير عن التجارب النفسية والشعورية تعبيراً فنياً جميلاً. ولما كان أغلب نشاط المعتزلة الفكرى قائماً على المناقشة والجدل والنظر فى الأدلة واستخدام الأقيسة المنطقية والبراهين العقلية، ونحو ذلك مما يناسب طبيعة الغاية التى يرمون إليها، وهى تقرير عقائدهم والدفاع عن دينهم، كان النثر لخلوه من قيد الوزن والقافية أيسر للنهوض بهذه المهمة من الشعر.

ثالثاً: أن الشعر المأثور عن المعتزلة ينقسم – من ناحية موضوعاته – إلى قسمين رئيسيين:

١ – قسم يعالج فيه أصحابه معظم الموضوعات التقليدية المعروفة فى الشعر العربى من غزل ومدح وفخر وهجاء. وهذا القسم تبدو فيه – من حين إلى آخر بعض التأثيرات المذهبية التى تتمثل فى استخدام بعض الألفاظ والأفكار الخاصة بمذهب المعتزلة، كما نرى ذلك – مثلاً – عند النظام والصاحب بن عباد فى بعض شعرهما الذى تتجلى فيه – أحياناً – خصائص تفكيرهم. وفيما عدا ذلك كان المعتزلة يلتزمون الطابع التقليدى فى أفكارهم وطرق تعبيرهم، بحيث لا نحس فى شعرهم هذا ما يمكن أن يميزه، إذا استثنيان من ذلك الفخر؛ فإنهم كانوا يفخرون بأنهم معتزلة، لا بأنهم ذوو حسب ونسب وما شابه ذلك مما يفخر به غيرهم من الشعراء العرب.

٢ – القسم الثانى: تتصل موضوعاته اتصالاً مباشراً بالاعتزال كمذهب، ويكاد هذا القسم ينحصر فيما أوردته مصادر التاريخ وكتب الأدب من شعر

لبشر بن المعتمر وصفوان الأنصارى من أساطين المعتزلة، حيث نرى أن هذا الشعر – ولاسيما شعر صفوان – يقوم على معالجة موضوعات مذهبية خالصة، فلم يقم على مدح أو غزل، وإنما قام على تقرير بعض القيم المذهبية التى تدل دلالة واضحة على طابع فكرى وعقيدى خاص.

ثم إن البناء الداخلى لهذا الشعر من ناحية الأفكار الجزئية التى يتكون منها المضمون الشعرى العام أدلّ على ثقافة المعتزلة التى كانت تعينهم على استخدام النظر العقلى للوصول إلى النتائج التى يريدون تقريرها. ويتجلى هذا الطابع – بوضوح فى شعر كل من بشار وصفوان، لذلك فإنه يمكن أن نقرر – مطمئنين – أن هذا الشعر يمثل من ناحية المضمون الانطباع المذهبى الكامل فى الإنتاج الأدبى.

رابعاً: لم يكن فى شعر المعتزلة – بصفة عامة – قيم شكلية جديدة يمكن ردها إلى التأثير المذهبى، إذا استثنينا من ذلك بعض المصطلحات التى كان يستخدمها بعض الشعراء من حين إلى آخر، وذلك كألفاظ: العلة والسبب والجوهر، والعرض، وما إليها من الألفاظ التى كنا نراها فى بعض تعبيرات الشعراء، وهذا بخلاف النثر الذى كان لهم فى تطويره أثر واضح على النحو الذى بيناه.

هذه هى خصائص أدب المعتزلة شعراً ونثراً، وتلك هى نشأتهم ومبادؤهم، وتعاليمهم، ونشاطهم الفكرى والعلمى والأبى، وآثارهم الملموسة فى ميدان الفكر الإسلامى، ومجال الإبداع الأدبى.

وفيما يلى نماذج متنوعة من إبداعاتهم الأدبية، وتحليل فنى مفصل لبعض النماذج.

(أ) نماذج من نثر المعتزلة

١ - خطب جعفر بن محمد الصادق، فغمز مذهب واصل بن عطاء، ورماه بأنه يفرق الكلمة، ويطعن على الأئمة، فرد عليه واصل بخطبة قصيرة هذا نصها:

«الحمد لله العدل في قضائه، الجواد بعطائه، المتعالي عن كل ذموم، والعالم بكل خفي مكتوم. نهى عن القبيح ولم يقضه، وحث على الجميل، ولم يحل بينه وبين خلقه، وإنك يا ابن الأئمة شغلك حب الدنيا، فأصبحت بها كلفاً، وما أتيناك إلا بدين محمد ﷺ وآله وصاحبيه وضجيعيه ابن أبي قحافة، وابن الخطاب وعثمان وعلي بن أبي طالب وجميع أئمة الهدى، فإن تقبل الحق تسعد به، وإن تصدف عنه تبوء بإثمك».

٢ - وقال أبو الهذيل العلاف فارس المعتزلة وجدلهم القوى لمجوسي: ما تقول في النار؟ قال: بنت الله. قلت: فالبقر؟ قال: ملائكة الله قص أجنحتها، وحطها على الأرض يحرث عليها. فقلت: فالماء؟ قال: نور الله. قلت: فما الجوع والعطش؟ قال: فقر الشيطان وفاقته؟ قلت: فمن يحمل الأرض؟ قال: بهمن الملك. قلت: فما في الدنيا شر من المجوس. أخذوا ملائكة الله فذبحوها، ثم غسلوها بنور الله، ثم شووها بنبت الله، ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته، ثم سلحوها إلى رأس بهمن أعز ملائكة الله. فانقطع المجوسي وخجل مما لزمه.

٣ - وقال الجاحظ في وصف اللسان: «هو أداة يظهر بها البيان، وشاهد يعبر عن الضمير، وحاكم يفصل الخطاب، وناطق به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء... إلى آخره».

(ب) نماذج من شعر المعتزلة

١ - قال ابراهيم النظام من شعره الذى تتجلى فيه خصائص مذهبه الاعتزالى:

يـا تـاركى جسـدا بغيـر فـؤاد أسرفت فى الهجران والإبعاد
إن كـان يمنعـك الزيـارة أعين فادخـل علىّ بعـلّة العـواد
كيمـا أراك وتـلك أعظـم نعمـة ملكت يداك بها منيع قيادى
إن العيون على القلوب إذا جنت كانت بليتهـا على الأجساد

٢ - وقال الصاحب بن عباد - وفى ذهنه مذهبه لا ينساه-:

ولما تنـاءت بالأحبـة دارهـم وصرنا جميعا من عيان إلى وهم
تمكن منى الشوق غير مسامـح كمعتـزلى قد تمكن من خصـم

٣ - وقال بشر بن المعتمر مشيدا بفضل المعتزلة ونضالهم فى الدين وتقدمهم فى العلم والرياسة:

إن كنت تعلم ما أقول وما تقول فأنـت عالم
أو كنت تجهل ذا وذاك فكن لأهل العلم لازم
أهل الرياسة من ينازعـهم رياستهم فظـالم
سهرت عيونهم وأنت من الذى قاسوه حـالم
لا تطلبن رياسة بالجهل أنت لـها مخـاصم
لولا مقامهمو رأيت الدين مضطرب الدعائم

٤ - وقال النظام فى تلميذه الجاحظ:

حبـى لعمـرو جوهـر ثابـت وحبـه لـى عـرض زائـل
بـه جهـاتى السـت مشغـولة وهـو إلـى غيـرى بها مائـل

٥ – وقال واصل بن عطاء رئيس المعتزلة فيما روى له من شعر:

تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم		ولا تلقهـم بالعقل إن كنت ذا عقل

فإن الفتى ذا العقل يشقى بعقله		كما كان قبل اليوم يشقى ذوو الجهل

٦ – وقال بشر بن المعتمر مشيراً إلى مظاهر العظمة الإلهية فى إحكام الخلق:

جـرادة تخـرق مـتن الصفا		وأبغـث يصطـاده صـقر

سلاحـه رمـح فـما عـذره؟		وقـد عـراه دونـه الذعر

والـدب والـقرد إذا علـما		والفيـل والكلبـة واليـعر

يحجـم عن فـرط أعاجيبهـا		ومن مـدى غاباتهـا السحر